سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٥)



تفسير

القرآن الكريم

سورة الزخرف

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

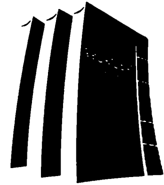
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

تفسير
القرآن الكريم
سورة الزخرف

© مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الزخرف. / محمد بن صالح العثيمين - ط ١ - القصيم، ١٤٣٦هـ
١٨٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٥)
ردمك: ١ - ٤٨ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - سورة الزخرف - تفسير.
أ - العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٠

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٠
ردمك: ١ - ٤٨ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة الزخرف

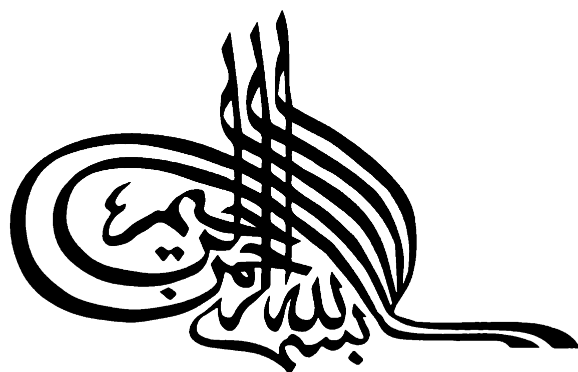
لفضيلة الشيخ العلامة

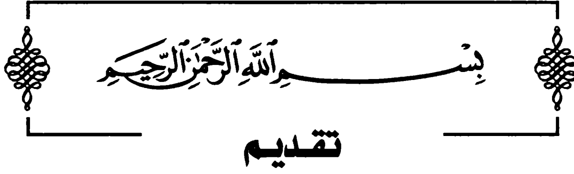
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم



إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤَسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضِيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ



(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة الزخرف

الحمـدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نَبيِّنا مُحمَّـدٍ وَعلَى آلِه وأصحَابِهِ، ومَنْ تَبِعَـهُم بإحسَانٍ إِلَى يَـوْمِ الدِّينِ، أمَّا بَعْـدُ فإِنَّ تَفْسِيرَ القُرآنِ العَظِيـمِ مِنْ أَهَمِّ وَاجِبَـاتِ المُسلِمِينَ أَنْ يَعرِفُوا معْنَى كـلَامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ الكَلَامَ إِذَا لَمْ يُفْـهَمْ معْنَـاهُ لَا يُنتفَع بِهِ، والَّذِي يَقْرَأُ ولَا يَفْـهَمُ بمنْزِلَةِ الأُمِّيِّ الَّذِي لَا يَقْرَأُ، كَمَا قَـالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أَيْ: إِلَّا قِرَاءَةً، فسَمَّاهُم اللهُ أُمِّيِّينَ.

والقُرآنُ يُفَسَّر بالقُرآنِ، فإِنْ لَمْ يَكُنْ فبِالسُّنَّةِ، فإِنْ لَمْ يَكُنْ فبأَقْوَالِ الصَّحابَةِ، ولا سِيَّما المَشْهُورُون مِنْهُم بعِلْمِ التَّفسِير، فإِنْ لَمْ يَكُنْ فبِما قَالَهُ كِبَارُ التَّابعِينَ مِنْ أَهْلِ التَّفسِير، هَذِهِ هِيَ القَاعدَةُ الَّتِي مَشَى عَلَيْهَا أَهْلُ السُّنَّة والجَماعَةُ.

وأمَّا التَّفسِيرُ بالرَّأْيِ فمِنْهُمُ المُخطِئُ ومِنْهُمُ المُصِيبُ، ولكِنْ لَا يَجُوزُ للإنسَانِ أَنْ يُفسِّرَ القُرآنَ برَأْيِـهِ، بمَعْنَى: أَنْ يُحـوِّلَ القُرآنَ إِلَى رَأيِه، فإِنَّ مَنْ قَـالَ فِي القُرآنِ برأْيِهِ فلْيَتبوَّأْ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ، مِثَـال ذَلِكَ: الَّذِين يُفسِّرُونَ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] بأنَّهُما النِّعمَةُ، فهَؤُلاءِ قَالُوا فِي القُرآنِ برَأْيِهِمْ؛ لأَنَّ هَـذَا المَعْنَى غيرُ المُرادِ قَطْعًا، وكذَلِكَ الَّذِين يَقُولُون: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، يَعْنِي: استوْلَى عَلَى العَرشِ، فإِنَّ هَـذَا مُنكَرٌ مِنَ القَولِ، وتَفْسِيرُ الآيَة بِهِ مِنَ القَولِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، ومِنَ الافتِرَاءِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هؤُلَاءِ نَقُولُ: إِنَّهُم قَالُوا فِي القُرآنِ برَأْيِهِمْ، أَيْ: حَوَّلوا القُرآنَ إِلَى رَأْيِهِمْ، وأمَّا مَنْ فسَّر القُرآنَ بمُقتَضى الحقَائِقِ الشَّرعيَّةِ واللُّغَويَّةِ إذَا لَمْ تكُنْ حقيقَةً شرعيَّةً فإِنَّه لَمْ يَقُلْ فِي القُرآنِ برَأْيِه.

وقَدْ سبقَتْ هَذِهِ القَاعدَةُ أوَّلَ مَا بدَأْنا فِي عِلْمِ التَّفسِير، فلْتَكُنْ مَرْجِعًا لكُمْ، يُفسَّرُ القُرآنُ أوَّلًا بالقُرآنِ، ثُمَّ بالسُّنَّة، ثُمَّ أَقْوالِ الصحَابَةِ، ثُمَّ كِبَارِ التَّابعِينَ الَّذِين اعْتَنَوْا بالتَّفسِير، كمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الَّذِي أَخَذَ التَّفسِير عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وأُقدِّم فِي بِدَايَة تَفْسِير سُورة الزُّخْرُف بمُقدِّماتٍ:

١- القُرآنُ الكَرِيمُ، مَا عقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّة فِيهِ؟

الجَوابُ: عَقيدَةُ أَهْلِ السُّنَّة في القُرآنِ الكَريمِ أَنَّه كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حقيقَةً، تكَلَّم به حَرْفيًّا، وأرَادَ معنَاهُ حسبَ اللُّغةِ العربيَّةِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وهَذَا القُرآنُ يَنزِلُ شَيئًا فشَيئًا، كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦] أَيْ: شَيْئًا فشَيْئًا حسبَمَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ في وَقْتِ نُزُولِهِ.

٢- أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ نَزَلَ عَلَى وَجْهَينِ:

الوَجْهِ الأوَّل: مَا لَهُ سَبَبٌ.

والثَّانِي: مَا لَا سَبَبَ لَهُ.

فالأوَّلُ: مَا لَهُ سَبَبٌ؛ أَيْ: بسَبَبِ حَادِثَةٍ وَقَعَتْ فنَزَل فِيهَا.

ومِنَ الضَّوابطِ فِي هَذَا: أنَّ كُلَّ آيَةٍ فِيهَا ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ فإنَّهَا لسَبَبٍ، يسألُونكَ عَنْ كَذَا، هَذَا سبَبٌ، فكُلَّمَا رَأَيْتَ في القُرآنِ الكَرِيمِ آيَةً مُصدَّرةً بكَلِمَةِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾

فإنَّها نزلَتْ لسَبَبٍ، وقَدْ لَا يُذْكَرُ فِيهَا ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ حسبَما ذُكِرَ فِي كُتُبِ التَّفسِيرِ.

وإذَا نزَلَتِ الْآيَـةُ لسَبَبٍ: فهَلْ تَخْتَـصُّ بذَلِكَ السَّببِ أَوْ تَكُونُ عَامَّـةً لَهُ ولِمَا يُشارِكُه في العِلَّة؟

الجَوابُ: تكُونُ عَامَّـةً لَهُ ولِمَا يُشـارِكُه في العِلَّة؛ ولهَذَا قَـالَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: العِبرَةُ بعُمُومِ اللَّفظِ لَا بخُصوصِ السَّببِ.

فمَثلًا: أوَّلُ سُورةِ المُجادلَة نزَلَتْ في قِصَّةِ رَجُل مُعيَّن -أَوسِ بْنِ الصَّامِتِ-، فهَلْ نَقُولُ: إنَّ هَذَا الحُكمَ خاصٌّ به. أو نَقُولُ: إنَّه عامٌّ لَهُ ولِمَنْ يُشارِكُه في المَعْنَى؟

الجَوابُ الثَّانِي؛ فكُلُّ مَنْ ظَاهَر مِنِ امرَأتِهِ فلَهُ حُكْمُ ظِهَارِ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذِهِ قاعِدَةٌ تُفيدُكَ في استِعْمالِ الاستِدْلَالِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وأنَّ الأَصْلَ هُوَ العُمُومُ.

٣- القُرآنُ الكَرِيمُ لَهُ خَصَائِص كَثِيرَةٌ:

مِنْـهَا: أَنَّهُ لَا يَمَسُّه الإنسَانُ إِلَّا عَلَى طَهَـارَةٍ؛ يَعْنِي: أنَّ المُحـدِثَ لا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَمَسَّ المُصحَفَ حـتَّى يَتوَضَّأ؛ لقَـولِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا كتبَهُ لعَمرِو بْنِ حَـزْمٍ: «**أَلَّا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**»[1] أيْ: طَـاهِرٌ مِنَ الحدَثِ؛ لأَنَّ الطَّهـارَةَ مِنَ الحدَثِ تُسمَّى طهارَةً، كَما قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في آيَةِ الوُضوءِ والغُسْلِ والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

واستَثْنَى بعْـضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ الصِّغارَ غَيرَ المُكلَّفِينَ، فقَـالَ: لَهُمْ أَنْ يَمسُّوا

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩٩)، والدارمي في سننه (٢٣١٢)، والدارقطني (١/ ١٢٢).

المُصْحَفَ بدُونِ وُضوءٍ؛ لأَنَّهُم غَيْرُ مُكلَّفِينَ.

وفِي هَذَا الاستِثْناء نظَرٌ؛ لأَنَّنا لَوْ قُلْنا بهَذَا لقُلْنا: يَجُوزُ لهؤُلاءِ الصِّغارِ أَنْ يُصَلُّوا بغَيْرِ طهَارَةٍ. ولَا قَائِلَ بِهِ فِيمَا أَعْلَمُ، فعَلَى هَذَا فلَا بُدَّ مِنَ الطَّهارَةِ حتَّى للصِّغارِ، لكِنْ مَا دَعَتِ الحَاجَةُ إِلَى مَسِّه بدُونِ طهَارَةٍ كأَلْواحِ الصِّغار الَّذِين يَتعلَّمُون بِها في المدارِسِ، فهؤُلاءِ لَا يَحتَاجُون إِلَى وُضُوءٍ؛ لأَنَّنا لَوْ كَلَّفنَاهم بذَلِكَ لشقَّ علَيْهِمْ.

ثُم إنَّ هَذَا القُرآنُ الكَرِيمُ لَا يَحِلُّ للجُنُبِ أَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ آيَةً فأكْثَرَ حتَّى يَغْتسِلَ، فـإذَا كَانَ عَلَى الإنسَانِ جنَـابَةٌ فإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَقْرَأَ شَيْـئًا مِنَ القُرآنِ -آيَـةً فأكْثَرَ- إِلَّا إِذَا اغتَسَلَ؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُقرِئ أصحَـابَهُ القُرآنَ مَا لَمْ يَكُنْ جُنُبًا، أَوْ قَالَ: «مَا لَمْ نكُنْ جُنُبًا»[1].

فإِنْ قَالَ قَائِل: هَلْ يَجُـوزُ للجُنُبِ أَنْ يَقرَأَ آيَةً لَا لقَصْدِ القُرْآنِ ولكِنْ لأَنَّها آيَةُ دُعاءٍ مَثَلًا؛ مِثْلَ: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً»؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، يَجُوزُ لَهُ هَذَا؛ لأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ تِلاوَةَ القُرْآنِ.

فإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: مَا تقُولُونَ في قِرَاءَةِ الحَائِضِ القُرآنَ؟

فالجَوابُ: اخْتَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هَذِهِ المَسأَلَةِ عَلَى قَوْلَينِ:

القَولُ الأَوَّلُ: أَنَّ الحَائِضَ لَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَقْرَأَ القُرآنَ؛ لأَنَّها كالجُنُبِ.

والقَولُ الثَّانِي: لَهَا أَنْ تَقْرَأَ القُرآنَ؛ لأَنَّه ليْـسَ في السُّنَّة دَلِيلٌ صحِيـحٌ صَرِيحٌ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب في الجنب يقرأ القرآن، رقم (٢٢٩)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في الرجل يقرأ القرآن على كل حال ما لم يكن جنبًا، رقم (١٤٦)، والإمام أحمد (١/ ٨٤)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَمْنَعُ الحَائضَ مِنْ قِراءَةِ القُرآنِ، ولَوْ كَانَتْ الحَائِضُ لَا تَقْرَأُ القُرآنَ لبُيِّن ذَلِكَ؛ لكَثْرَةِ وُقُوعِ الحَيْـضِ واحتِيَاجِ النِّساءِ إِلَى بَيَانِ الحُكْمِ، فلَمَّا لَمْ يَرِدْ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فالأَصْلُ الجَوَازُ؛ لأَنَّ القُرآنَ مِنَ الذِّكْرِ، والحَائِضُ لَا تُمْنَعُ مِنْهُ.

وعِنْدِي: أنَّ الحائِضَ تَقْرَأُ القُرآنَ لحَاجَةٍ أو مَصلَحَةٍ:

فالحَاجَةُ كأَنْ تَقْرَأُ وِرْدَها مِنَ القُـرآنِ؛ مِثْـلَ: آيَةِ الكُرسيِّ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، أَوْ تَقْرَأُ القُرآنَ لِئَلَّا تَنسَاهُ، فهذِهِ حاجَةٌ أيْضًا.

ولمصلحَةٍ مِثْلَ: أَنْ تُقْرِئَ ابنَتَها أَوْ طِفلَها القُرآنَ؛ أَيْ: تُعلِّمَه القُرْآنَ؛ لأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَرِدْ دَلِيلٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فِي المَنْعِ، وكَانَتِ المَسْأَلَةُ فِيهَا احْتِمالٌ؛ فالاحتِيَاطُ أَوْلَى.

إذَن: فالحُكْمُ الْآنَ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ: أنَّ لَهَـا أَنْ تقرَأَ القُرآنَ لحَاجَةٍ أَوْ مَصْلَحَـةٍ؛ لعَدَمِ الدَّلِيلِ الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ عَلَى مَنْعِهَا.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الحَائِضُ تَقْرَأُ القُرآنَ لمصلَحَةٍ أَوْ حَاجةٍ، هَلْ تَمَسُّ القُرآنَ؟

فالجَوابُ: لَا، القُرآنُ لَا يَمَسُّه إِلَّا طَاهِرٌ، ولكِنَّه لَيْسَ فِيهِ مَنْعٌ مِنْ قِرَاءَةِ القُرآنِ، مُمكِنٌ أنْ تُمسِكَ المُصحفَ بقُفَّازَيْنِ أَوْ مَنْ وَرَاءِ ثَوْبٍ.

٤ - القُرآنُ الكَرِيمُ يَختَصُّ بأَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ حَسَنَةٌ، والحسَنَةُ بعَشْرِ أَمْثَالِهَا:

ولَيْسَ ذَلِكَ مَوْجُودًا فِي السُّنَّة، حتَّى الأَحادِيثُ القُدسيَّة لَا يَثْبُت لَهَا ذَلِكَ، وإنَّما هَذَا خَاصٌّ بالقُرآنِ الكَرِيمِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هُناكَ أَوْرَاقٌ فِيهَا عددُ حُرُوفِ المُصحَفِ كَذَا وكَذَا فإذَا قَرأْتَ المُصحَفَ كَامِلًا اضْرِبْها فِي عشَرَةٍ، فيَكُونُ لَكَ عَدَدُ الحسنَاتِ كَذَا. فَما رَأْيُكُم؟

فالجَوابُ: هَذَا كَذِبٌ، مرَّ ابْنُ مسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقَوْمٍ يُسبِّحُون ويَعُدُّون بالحَصَى، فقَالَ لَهُمْ: إنَّكُم لَنْ تُحصُوا أعمالَكُمْ، أعمالُكُم الصَّالحَةُ مُحصَاةٌ لكُمْ: مَكتُوبَةٌ، لكِنْ أَحْصُوا أعمالَكُمْ السَّيِّئَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتُوبُوا إِلَى اللهِ مِنْهَا[1]. وهَـذَا حَقٌّ، فكُلُّ هَـذِهِ الأشيَاءِ مُحدَثَةٌ، واللهِ عَزَّوَجَلَّ لَنْ يُضِيعَ أجْرَ أحَدٍ يَعْلَمُ عددَ حُرُوفِ القُرآنِ، ويَعْلَمُ مَا يَترتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوابِ، ولَنْ يَضِيعَ.

٥- القُرآنُ الكَرِيمُ يَختَصُّ بالإِعْجَازِ:

أَيْ: بأَنَّ الخَلْقَ لَا يَستَطِيعُون أَنْ يَأْتُوا بمِثْلِهِ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] أَيْ: مُعِينًا.

وليْسَ ذَلِكَ مَوجُـودًا فِي أَيِّ كَـلَامٍ مِنْ كَلَامِ البَشَرِ، وإنَّما هُـوَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، فلَا يَستَطِيعُ أحَـدٌ أَنْ يَأتِيَ بمِثْلِهِ، بَلْ وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْـهُ، بَلْ ولَا بِسُورَةٍ مِنْهُ، بَلْ وَلَا بِآيَةٍ منه:

فالقُرآنُ كَامِلًا كَما فِي قَولِهِ تعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

وعَشْرُ سُوَرٍ كما فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١١].

وسُورَةٌ كما فِي قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨].

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه رقم (٢١٠).

وآيَةٌ كما في قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٣-٣٤] أَيْ: أَيِّ حَدِيثٍ.

وقَد عجزَ العَرَبُ عَنْ ذَلِكَ، أَيْ: عَنْ أَنْ يَأْتُوا بشَيْءٍ مِثْلِ القُرآنِ، مَعَ أَنَّهُم قَدْ تَوفَّرتْ لهُمْ أَسَاليبُ البلَاغةِ والفَصاحَةِ، وصَارَ الدَّاعي لمُعارَضةِ القُرآنِ عندَهُم قَويًّا، فَلَمَّا كَانَ الدَّاعي قَويًّا ولم يُوجَدْ مَانِعٌ عُلِمَ أَنَّهُم لَا يَستَطِيعُون أَنْ يَأْتُوا بمِثْلِهِ.

ولذَلِكَ تَجِدُ القُرآنَ الكريمَ لَا يَمَلُّ الإِنْسانُ مِنْ قِراءَتِه، ولَا مِنْ تكرارِهِ، وغيرُهُ يُمَلُّ مِنْ تكرارِهِ، ويَمجُّهُ السَّمْعُ، ويَثْقُلُ عَلَى اللِّسانِ، لكِنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ لا يَخْلَقُ مَعَ التَّردَادِ أَبدًا، تَجِدُه طَرِيًّا كُلَّما قرَأْتَهُ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ فتحَ علَيْكَ، وكَانَ عنْدَك نِيَّةٌ وقصْدٌ صَحِيحٌ في معرِفَةِ المَعْنَى؛ فكُلُّ قِراءَةٍ تَقرَؤُها يَتَّضِحُ لَكَ بهَا معنًى غَيْرُ الأَوَّلِ؛ وجرِّبْ تَجِدْ، فهَذَا الشَّيءُ معلُومٌ، لكِنَّ هَذَا لِمَنْ عَلِمَ اللهُ منْهُ صِدْقَ الطَّلَبِ في مَعرِفَةِ المَعْنَى، أَمَّا مَنْ أَعْرَض عَنْ ذَلِكَ فإِنَّه لَا يَستَفِيدُ، لكِنْ مَن عَلِمَ اللهُ منْهُ صِدْقَ الطَّلَبِ فإِنَّ اللهَ يَفتَحُ علَيْهِ كُلَّما قرَأَ القُرآنَ مِنَ المَعاني ما لَمْ يَكُنْ سَابِقًا.

٦- القُرْآنُ الكَرِيمُ أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وجعَلَهُ مُبارَكًا:

مُبارَكًا في تَأْثيرِهِ؛ مُبارَكًا في ثَوابِهِ؛ مُبارَكًا في آثَارِهِ:

مُبَارَكًا في تَأْثيرِهِ، يَعنِي: أَنَّهُ يُؤثِّرُ عَلَى القَلْبِ، ويُلِيِّنُ القَلْبَ، ويُكسِبُه خَشْيَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] سُبْحانَ اللهِ! فهذا وهُوَ جبَلٌ حَصًى يَكُون خَاشِعًا ذَلِيلًا ويَتَصدَّع مِنْ خَشيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَما بالُكم بالقَلْبِ؟! لَوْ كَانَ القَلْبُ حَيًّا

يَكُونُ مِنْ بَابِ أَوْلَى؛ ولهَذَا قَالَ ابْنُ عبْدِ القَوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وحَافِظْ عَلَى دَرْسِ الْقُـرَانِ فَإِنَّـهُ يُلَيِّنُ قَلْبًـا قَاسِـيًا مِثْـلَ جَلْمَـدِ[1]

ومَا أكثَرَ الَّذِين يَشْكُونَ قَسوَةَ قُلُوبِهِمُ اليَومَ؛ لأَسْبَابٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا، ولكِنْ إِذَا أَحَسُّوا بِقَسْوَةِ القَلْبِ فعَلَيْهِمْ بالقُرآنِ، نَسأَلُ اللهَ أَنْ يُلَيِّنَ قُلوبَنا.

ومِنْ جهَةِ التَّأْثيرِ أيضًا: فالقُرآنُ الكَرِيمُ رُقيَةٌ مِنْ كُلِّ داءٍ وكُلِّ مرَضٍ، فالقُرآنُ الكَرِيمُ دواءٌ لَهُ مِنْ كُلِّ مَرَضٍ:

المَرَضُ القَلبيُّ؛ وهُوَ الشُّبْهةُ الَّتِي تَرِدُ عَلَى القُلُوبِ، أَوْ إرادَةُ السُّوء، شِفَاؤُها القُرْآنُ.

المَرَضُ الجِسميُّ العُضْويُّ شِفَاؤُه القُرْآنُ؛ وقَد نزَلَ قَومٌ مِنَ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى قَـوْمٍ مِنَ الأَعْرَابِ، نزَلُوا ضُيُـوفًا، ولكِنَّ هؤُلاءِ العَرَبَ لم يُضيِّفُوا الصَّحَـابَةَ، أَبَوْا أَنْ يُضيِّفُوهم، فتَنَحَّى الصَّحابَةُ إِلَى جَانِبٍ، ونَزَلُوا، فسَلَّطَ اللهُ عَلَى سَيِّدِ العَرَبِ عَقْرَبًا فلدَغَتْهُ وآلَمَتْهُ، فقَالَ بعضُهُم لبعـضٍ: أَلَا تَنظُرون إِلَى هَؤُلاء القَومِ لعَلَّ فيهِمْ مَنْ يَقرأُ؟! فأَتَوْا إِلَى الصَّحابَةِ فقَالُوا: إنَّ سيِّدَهُم لُدِغَ، فهَلْ فيكُمْ مِنْ قَارِئٍ؟ قَالُوا: نعَـمْ، فِينَا قَارِئٌ، ولكنَّنَا لَنْ نَقْرَأَ عَلَيْـهِ -عَلَى هَذَا المَرِيضِ- إِلَّا بقَطِيعٍ مِنَ الغنَـمِ -لأَنَّ هَؤُلاءِ العَرَبَ لَمْ يُكرِمُوهُـم، فأَرَادُوا أَنْ يَأخُـذُوا حقَّهُم منْهُمْ- قَالُوا: ولكُـمْ ذَلِكَ. فقَـامَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحـابةِ عَلَى هَذَا اللَّدِيغِ، وجعَـلَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الفَاتِحَةَ حتَّى قَامَ كأَنَّهُ نُشِـطَ مِنْ عِقَالٍ[2] والسَّمُّ قَـدْ سَرَى فِي جِسْمِـهِ، لكِنْ زَالَ هَـذَا وَطَابَ؛

---

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٥٩٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهَذَا تَأثِيرٌ عَجِيبٌ.

ومَا أكْثَرَ مَا نَقرَأُ الفاتحَةَ وغَيْرَ الفَاتحَةِ والمرِيضُ كَمَا هُـو في مرَضِهِ، فلمَاذَا والْآيَةُ واحِدَةٌ؟

الجواب: لأَنَّه كَمَا يُقالُ: السَّيفُ بضَارِبِهِ، فالسَّيفُ حَدِيدٌ قَاطِعٌ، لكِنْ إِذَا كَانَ مَعَ الجبَانِ لا يَنْفَعُه، رُبَّما إِذَا رَأَى العَدوَّ مُقبِلًا عَلَيْهِ أَلْقَى بالسَّيفِ وهَرَبَ، لكِنْ إِذَا كَانَ بيَدِ الشُّجاعِ فإِنَّه يَنفَعُ ويُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ ويَقْتُل عَدُوَّه.

ولهَذَا يُذكَرُ عَنْ رَجُلٍ كَانَ الإِمَامُ أحمَدُ بْنُ حنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقْرَأُ عَلَيْه، وكَانَ بِهِ صَرَعٌ مِنَ الجِنِّ، فيَخرُجُ الجِنُّ، ولمَّا مَاتَ الإمَامُ أحمَدُ عَادَ الجِنِّيُّ، فقَامَ رَجُلٌ يَقْرَأُ عَلَى هَذَا المَصرُوعِ بِمَا كَانَ الإمَامُ أحمَدُ يَقرَأُ بِهِ، ولكِنَّ الصَّارِعَ أَبَى أَنْ يَخرُجَ، وأَجَابَ بأَنَّ الْآيَةَ هِيَ الْآيَةُ والقَارِئُ غيرُ القَارِئِ. فلَا تَظُنَّ إِذَا لَمْ تَجِدْ تَأثِيرَ القُرآنِ مُباشَرَةً أَنَّ القُرآنَ غَيْرُ مُؤثِّرٍ، ولكِنَّ القَارِئَ غَيْرُ مُؤثِّرٍ.

ومُبارَكٌ في آثَارِهِ، فقَدْ فتَحَ المُسلمُونَ مشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَها بالقُرآنِ، أَيْ: بالعَمَلِ بالقُرآنِ؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ جَاهِدْهُم بالقُرآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، فتَحُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ ومغَارِبَها بالقُرآنِ حِينَ كَانَ القُرآنُ باليَدِ اليُمنَى والسَّيفُ باليَدِ اليُسرَى.

والْآنَ كَثِيرٌ مِنَ المَمَالِكِ الإسلَاميَّةِ بيَدِهَا القَانُونُ الوَضعيُّ بدَلًا عَنِ القُرآنِ الكَرِيمِ؛ ولذَلِكَ كَانَ التَّأَخُّرُ؛ فالتَّأَخُّرُ والذُّلُّ فِي الأُمَّةِ الإسلَامِيَّةِ بسَببِ عملِ مَنْ ينتَسِبُون إِلَيْهَا، فالذَّنْبُ -إِذَنْ- في تَأَخُّرِ المُسلِمِينَ اليَوْمَ لَيسَ ذَنْبَ الإسلَامِ، ولكِنْ ذَنْبُ المُسلِمِين.

فمِنْ آثَارِ القُرآنِ الكَرِيمِ إذَن: أنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ فهُوَ مَنْصُورٌ، والشَّاهِدُ ما سبَقَ لسلَفِنا الصَّالحِ.

وهُوَ أيضًا مُبارَكٌ في ثوابِهِ: فالحَرْفُ الوَاحِدُ فِيه حسَنَةٌ، والحسَنَةُ بعَشْرِ أمثالِهَا، ومَا أكْثَرَ حُروفَ القُرآنِ!

وبهَذِهِ المُناسبَةِ عَرَضَ عَليَّ فِي الرِّياضِ فِي الأُسْبُوعِ المَاضِي إنسَانٌ ورقَةً مَكتُوبٌ فِيهَا: الإعجَازُ العدَديُّ في القُرآنِ، جدْولٌ ذُكِرَ فِيهِ أنَّ جَمِيعَ حُرُوفِ القُرآنِ كُلَّها تَقبَلُ القِسْمَةَ عَلَى تِسعَةَ عَشَرَ إذَا جُمِعتْ، ولكِن هَذَا افتِرَاءٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومُنَاقِضٌ للوَاقِعِ، ولَا يَجُوزُ تَداوُل هذِهِ البطَاقَةِ؛ لأنَّهُ لا يُمكِنُ لإنسَانٍ أَنْ يَشْهَدَ أنَّ اللهَ تعالَى تكلَّمَ بالقُرآنِ بحَيْثُ تكُونُ حُرُوفُه مُنقسِمَةً عَلَى تِسعَةَ عَشَرَ، مَنْ يَقُول هَذَا؟! لكنَّهُ افتِرَاءٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ إنَّ حُروفَ القُرآن الكريم لَا يُمكِنُ أَنْ يُقَالَ: إنَّها تَنقَسِمُ عَلَى تِسعَةَ عَشَرَ مَعَ اخْتِلَافِ القِرَاءَاتِ؛ فمَثَلًا ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، والقِراءَةُ الثَّانيَةُ «فتَثبَّتُوا» إذَنِ اختلَّتْ؛ أَتَتِ الثَّاءُ بدَلًا عَنِ البَاءِ «فتَثَبَّتُوا» وبدَلًا عَنِ النُّون، فاخْتَلَّتِ القِسْمَةُ.

كذَلِكَ في القُرآنِ الكَرِيمِ: «مَلِكِ يَومِ الدِّينِ» و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] اختَلَّتْ؛ زَادَ حَرْفٌ. لكِنْ هَؤُلاءِ المَشغُوفُون بِمَا يَدَّعُون أَنَّهُ ذكَاءٌ، وأَنَّهُم اطَّلَعُوا عَلَى مَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أحَدٌ يَأْتُون بمِثْلِ هَذِهِ الخُرافَاتِ؛ ليَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ المَعْنَى الحَقِيقِيِّ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ القُرآنُ، فهَلِ القُرآنُ جَاءَ ليُحصِيَ النَّاسُ العَددَ ويُقسِّمُونه عَلَى تِسعَةَ عشَرَ؟ لَا، واللهِ! ولَا يُمكِنُ أَنْ يَنزِلَ القُرآنُ الكَرِيمُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ المُعجزَةِ كَمَا يَقُولُون، مَعَ أَنَّهَا ليسَتْ مُعجِزَةً، فهِيَ فَاشِلَةٌ باطِلَةٌ.

وقَد أَحببْتُ أَنْ أُنبِّهَ عَلَى هَذَا لأَنَّهُ رُبَّما تَشِيعُ؛ لأنَّ الَّذِي سأَلَنِي عنهَا يُريدُ أن يَطْبعَ منهَا الملَايينَ ويُوزِّعها عَلَى النَّاسِ، ويَقُولُ: انْظُروا إلى القُرآنِ الكَريمِ. فنَقُولُ: هَذَا غلَطٌ، فالقُرآنُ مَا نَزَلَ لهَذَا المَعْـنَى، ولَا يُمكِنُ أَنْ يُرادَ بِهِ هَذَا المَعْـنَى، فانْتَبِهُوا لِمثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ الَّتِي تُنشَرُ، فقَدْ تَكُونُ مِنْ مُلحِدٍ كَافِرٍ أَوْ فَاسِقٍ فَاجِرٍ يُرِيدُ بِهَا صَدَّ النَّاسِ عَنِ المَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نَزَلَ القُرآنُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُـوزُ تَفسِيرُ القُرآنِ بِمَا يُعرَفُ بالإِعْجَـازِ العِلميِّ مِنَ القُرآنِ والسُّنَّةِ؟

فالجَوابُ: الإِعجَـازُ العِلمِيُّ نوعَانِ: نَـوْعٌ دَلَّ عَلَيْهِ القُرآنُ وأَشَارَ إِلَيْـهِ، هَذَا لَا بَأْسَ بِـهِ، وهُوَ مِنْ تَفْسِيرِ القُرآنِ، ونَوْعٌ لَا يَـدُلُّ عَلَيْهِ القُرآنُ، وإِنَّمَا يُؤخَـذُ مِنْهُ بتكلُّف، ورُبَّما لَا يَدُلُّ علَيْهِ أَصْلًا، فهَذَا لَا يَجُوزُ تفسِيرُ القُرآنُ بِهِ، مِثَالُ الثَّانِي قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣] فسَّرهُ بعضُهم بالعِلْمِ، وطبَّق هَذَا عَلَى الوُصُولِ إِلَى القَمَرِ فهَـذَا لَا يَحِلُّ؛ لأَنَّ الْآيَة لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، الْآيَةُ فِيهَا بيَانُ الحَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ ولهَذَا قَالَ ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومَعْلُومٌ أنَّ هؤُلاءِ لَمْ يَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمواتِ، فالإِعْجَازُ العِلميُّ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ تَكلُّف لَا بَأْسَ بِهِ؛ لأَنَّ القُرآنَ وَاسِعٌ.

وممَّا يُنكَرُ أيضًا ممَّا يُقَـالُ: الإعجَـازُ العِلميُّ؛ مَا يُسمُّونَه بالإِعجَـازِ العدَديِّ المَبنيِّ عَلَى العدَدِ: تِسعةَ عشَرَ، هَذَا أيضًا بَاطِلٌ، ولَا يَجُوزُ أَنْ يقَالَ: إِنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ مِنْ هَذِهِ النَّاحيَةِ.

أَوَّلًا: لأَنَّ القِراءَةَ مُختَلِفَةٌ، وهُمْ يَقُولُونَ مَثَلًا: التَّاءُ تَكرَّرت كَذَا وكَذَا مَرَّةً إِذَا

قسَمْتَـها عَلَى تِسعَةَ عشَرَ انْقَسَـمَت، اللَّامُ تكرَّرت كَذَا وكَذَا مَرَّةً إذَا قسَمْتَـها عَلَى تِسْعَةَ عشَرَ انْقَسَمَتْ بِلَا كَسْرٍ، هَكَذَا يَزْعُمُونَ وهَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

حتَّى قَالَ لِي بعضُهُم: إنَّ اللهَ تعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]، وقَالَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح:٢٤] قَالَ: إنَّ اللهَ ذَكَرَ (بَكَّةَ) مِنْ أَجْـلِ أَنْ تُتِمَّ البَاءُ العددَ الَّذِي يَنْقَسِمُ عَلَى تِسعةَ عشَرَ، وهَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ كَذِبٌ.

والدَّليلُ: مَثَلًا فِي القُرآنِ كَلِمَاتٌ فِيهَا قِرَاءَاتٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤] فِيهَا قِرَاءَةُ «فتَثَبَّتُوا» إذَنِ: اختَلَّ العَدَدُ، صَارَ بَدَلَ النُّونِ (ثَاءٌ)، وبَدَلَ اليَاءِ بَاءٌ.

كذَلِكَ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] وفِي قِرَاءَة: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» بحَـذْفِ الأَلِفِ، فنقَـصَتِ الألِفُ، فالقَـصْدُ أنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ كَذِبٌ، ولَا يَجُوزُ أنْ يُفسَّر القُرآنُ بالإعجَازِ العدَدِيِّ؛ لأنَّه أوَّلًا: لَيْسَ فِيهِ إعْجَازٌ كَمَا قَالُوا.

وثَانيًا: القُرآنُ مَا نَزَلَ عَلَى أنَّه تمرِينٌ حِسَابِيٌّ، بَلْ نزَلَ عَلَى أَنَّهُ موعِظَةٌ وشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدورِ.

ويُقَالُ: إنَّ الَّذِي أَطْلَقَ هَذِهِ البِدْعَةَ رَجُلٌ كَانَ يُنكِرُ القِسْمَ الثَّانِيَ مِنَ الشَّهادَةِ، ويقُولُ: إنَّ الشَّهادَةَ فقَطْ تَقْتَصِرُ عَلَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وهُوَ رَجُـلٌ يُسمَّى رَشَادًا، ونشَرَهَا فِيمَا سَبَقَ قَبْلَ سنَـوَاتٍ، ولكِنَّهُ قُتِل، قتلَهُ بعْضُ النَّاسِ؛ لأَنَّهُ ابْتَدَعَ فِي دِينِ اللهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

ولكِن هَـذِهِ الأَيَّامَ الأخيرَةَ وجَدْتُ إنسانًا معَهُ ورَقَةٌ مِنْ هَذَا النَّوعِ يُرِيدُ أَنْ

يَطبَعَها عَلَى حِسَابِهِ الخَاصِّ ويُوزِّعَها بَيْنَ النَّاسِ، فقُلْتُ لَهُ: هَذَا لَا يجُوزُ، ومَزَّقْتُ الورَقَةَ الَّتِي أَعطَانِي، وقُلْتُ: يَجِبُ أَنْ تعْلَمَ أَنَّ القُرآنَ إنَّما نَزَلَ لإصْلَاحِ الخَلْقِ، لَا لامتِحَانِ عُقُولِهِمْ بالعَدَدِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ثُمَّ كَمَا تَقدَّم: تُوجَدُ آيَاتٌ مُختلِفَةٌ تَمنَعُ هَذَا التَّركيبَ الَّذِي ذَكَر.

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩] أَيْ: يَتفكَّرُوا فِيهَا، ويُردِّدُوها بأفكَارِهِمْ؛ حتَّى يَتبيَّنَ لَهُم المَعْنَى، فالقُرآنُ الكَرِيمُ لَمْ ينزِلْ لتِلاوتِهِ لفْظًا فقَطْ، بَلْ ولتَدبُّرِ معْنَاهُ، ولا يُمكِنُ العَمَلُ بِهِ إِلَّا بمَعرِفَةِ مَعْنَاهُ، ولَا يُمكِنُ معرِفَةُ معنَاهُ إِلَّا بتَدبُّرِهِ.

إِذَنِ: فالتَّفكِيرُ فِي معْنَاهُ أَمْرٌ وَاجِبٌ، فيَجِبُ أَنْ تَتعَلَّمَ مَعْنَى القُرآنِ كَمَا تَتعَلَّمُ مَعْنَى الآجُرُّوميَّة، وهِيَ كِتَابٌ صَغِيرٌ فِي النَّحْوِ، لَا يُمكِنُ أَنْ يَستَفِيدَ مِنْهُ الإنسَانُ حتَّى يَعرِفَ معْنَاهُ، كذَلِكَ أيضًا القُرآنُ الكَرِيمُ، لَا يُمكِنُ أَنْ يَستَفِيدَ الإنسَانُ مِنْهُ حتَّى يَعرِفَ مَعْنَاهُ، ولَوْ أَنَّ هُناكَ كِتَابًا في الطِّبِّ مِنْ أَفْصَحِ الكُتُبِ وأَنْتَ لَا تَعرِفُ المَعْنَى فَلَا يُمكِنُ أَنْ تَستَفِيدَ مِنْهُ.

إِذَنْ: لَا يُمكِنُ أَنْ تَستَفِيدَ مِنَ القُرآنِ حتَّى تَعرِفَ مَعنَاهُ.

ولقَدْ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١) وهَذَا يَشْمَلُ التَّعلُّمَ اللَّفظيَّ والتَّعلُّمَ المَعنَويَّ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩].

وإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعرِفَ هَذَا فاقْرَأْ آيَةً مِنَ القُرآنِ مَعَ التَّدبُّرِ، واقْرَأْها مَعَ الغَفْلَةِ، تَجِدْ الفَرْقَ العَظِيمَ بَيْنَ هَذَا وهَذَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم (٥٠٢٧)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لذَلِكَ أَحُثُّكُم -أيُّها الإِخْـوةُ- عَلَى تَعلُّمِ مَعْنَى القُرآنِ الكَرِيمِ، فاقْرَؤُوا كُتُبَ التَّفسِيرِ المَوثُوقَةِ، واحْذَرُوا الكُتُبَ الَّتِي لا يُعرَفُ مَنْ أَلَّفَها أَوِ الَّتِي عُرِفَ مَنْ أَلَّفَهَا بأَنَّهُ مُنحرِفٌ، أَوْ مَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ؛ لأَنَّ مِنَ المُفَسِّرينَ مَنْ حرَّفَ القُرْآنَ ونَقَـلَهُ إِلَى مَا يَعتَقِدُهُ هُوَ، لَا إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ القُرآنُ، فاحْذَرُوها، وإِذَا لَمْ تَتَمكَّنُوا مِنْ هَذَا فاسْأَلُوا أَهْلَ العِلْمِ حتَّى تَستَفِيدُوا مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ.

ثانيًا: قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ أَيْ: يَتَّعِظَ أصحَابُ العُقولِ. وانْظُرِ الفرقَ بيْنَ قَولِهِ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ حَيْثُ عمَّم فِيهَا، وقَولِـهِ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حَيْثُ خصَّ؛ لأَنَّهُ لَا يَتَـذكَّرُ بالقُرآنِ ولا يَتَّعِظُ بِهِ إِلَّا أَصْحَابُ العُقُولِ، كَما قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِلَى مَنْ نَرجِعُ في تَفسِيرِ القُرْآنِ؟

فالجَوابُ: نَرجِعُ إِلَى القُرآنِ، نُفسِّرُ القُرآنَ بالقُرآنِ، فإِنْ لَمْ نجِدْ فبالسُّنَّةِ، فإِنْ لَمْ نَجِـدْ فبأَقْوَالِ الصَّحابةِ، ولا سِيَّما المُفسِّرُونَ مِنـهُمْ، فإِنْ لَمْ نَجِدْ رَجَعْنا إِلَى أَقْوَالِ التَّابعِينَ -المُفسِّرين منهُم- كمُجاهِدِ بْن جَبْرٍ وغَيرِهِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

مثَالُ تفسيرِ القُرآنِ بالقُرآنِ: قولُهُ تعالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:١-٤]، والأمثِلَةُ كَثيرَةٌ.

مثَالُهُ مِنَ السُّنَّة: قَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يَعْنِي: الجَنَّة. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَسَّر ذَلِكَ

النَّبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ(١)، وهُوَ أَعْلَمُ الخَلْقِ بكِتَابِ اللهِ تعالَى.

ومِنْ ذَلِكَ قَولُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠] قَالَ النَّبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» مَرَّتينِ أَوْ ثَلاثًا(٢). ففسَّر القُوَّة بالرَّمي؛ لأَنَّ الرَّمي أَشَدُّ مَا يكُونُ فَتْكًا بالنِّسبَةِ للأَسْلِحَةِ، وإِلَى يومِنَا هَذَا الرَّميُ هُوَ القُوَّةُ، وقَد كَانَ النَّاسُ في الأَوَّلِ يَرمُونَ بالسِّهامِ بالقَوْسِ، والْآنَ يَرمُونَ بالصَّوارِيخِ والقَنابِلِ.

فلَا تَظُنَّ أنَّ قولَهُ ﷺ: «أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّميُ» خَاصٌّ بِمَا كَانَ فِي عهْدِهِ، بَلْ هِيَ عَامَّةٌ بِمَا يُحْدَثُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: نَرجِعُ في تَفْسِيرِ القُرآنِ إِلَى تَفْسِيرِ القُرآنِ بالقُرآنِ، ثُمَّ بالسُّنَّةِ، ثُمَّ بأَقْوَالِ الصَّحابَةِ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ، ولا نَعدِلُ عَنْ أَقْوَالِ الصَّحابَةِ إِلَى تَفْسِيرِ المُتأخِّرينَ أَبَدًا، خُصُوصًا فِي العِبادَاتِ، أَمَّا فِي الأُمُورِ الَّتِي تَحْدُثُ ويَكُونُ فِي القُرآنِ إِشَارَةٌ لَهَا فهَذِهِ قَدْ لَا يَرِدُ عَنِ السَّلفِ فيهَا تَفْسِيرٌ، ولكِنْ تُفسَّر حسبَ الوَقْتِ؛ لأَنَّ هُناكَ أَشياءَ مِنَ الأُمُورِ الكَونيَّةِ الفضَائيَّةِ والأَرضِيَّةِ لَمْ يَتكلَّمْ فِيهَا السَّلفُ رَحِمَهُمُاللَّهُ، ولكِنْ تكلَّم فِيهَا المُتأخِّرُونَ، فنقُولُ: يُرجَعُ إِلَى قَولِ المُتأخِّرينَ فِي هَذَا؛ لأَنَّ السَّلفَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُون ذَلِكَ.

أَمَّا مَسَائِلُ العِبَادَةِ والمُعَاملَاتِ ومَا أَشْبَهَهَا؛ فإِنَّهُ يُرجَعُ في ذَلِكَ إِلَى تفسِيرِ الصَّحابَةِ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، ثُمَّ بعْدَ ذَلِكَ المَرتبَةُ الرَّابِعَةُ: كِبَارُ المُفسِّرينَ مِنَ التَّابعِينَ رَحِمَهُمُاللَّهُ، ومَرتبتُهُم أَدْنَى بكَثِيرٍ مِنْ مَرتَبَةِ الصَّحابَةِ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

أَسأَلُ اللهَ تعَالَى أن يَجعَلَنا وإيَّاكُم ممَّنْ يَتلُونَ كتَابَ اللهِ حقَّ تِلاوَتِهِ، وأَنْ يرزُقَنا تَعلُّمَه لفْظًا ومَعْنًى، والعمَلَ بِهِ، إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا اجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ عَلَى كتَابِ اللهِ يَستَمِعُون القُرآنَ ويُنصِتُون لَهُ فهَلْ لَهُمْ أَجْرُ القَارِئِ؟

الجَوابُ: نعَمْ، لهُمْ أَجْرُ القَارِئِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]؛ ولِذَلِكَ يُشرَع لهُمْ إِذَا سجَدَ القَارِئُ سُجودَ التِّلاوَةِ أَنْ يَسْجُدُوا مَعَهُ، فحُكمُهُمْ حُكمُهُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ للمُستَمِعِينَ إِلَى التَّسجِيلِ أَجْرُ القِرَاءَةِ؟

الجَوابُ: لَا، لَيْسَ لَهُمْ أَجْرُ القِرَاءَةِ؛ لأَنَّ هَـذَا حِكَايَةُ صَوْتِ قَارِئٍ قَدْ يَكُونُ مَيِّتًا ولَيْسَ قرَاءَةً، ولِهَذَا لا يَحِلُّ أَنْ يُؤدَّى الأَذَانُ مِنْ مُسجِّلٍ كَمَا يَفْعَلُ بعْضُ النَّاسِ فِي بَعْضِ الأَمكِنَةِ، عندَهُمْ مُسجِّلٌ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الأَذَانِ فتَحُوا المُسجِّل بالمُؤذِّن، هَذَا غلَطٌ عظِيمٌ، ولَا يَنْفَعُ.





❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

• • ✿ • •

البسملَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ، يَعْنِي: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْزَلَها كَما أَنْزَلَ بَاقِيَ القُرآن، فهِيَ كلَامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تُفتتَحُ بِهَا كُلُّ سُورَةٍ مِنَ الفَاتِحَةِ إِلَى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١] إِلَّا ﴿بَرَآءَةٌ﴾ فإِنَّها لم تَنْزِلْ لافتِتَاحِهَا.

وليسَتِ البَسملَةُ مِنَ السُّورةِ الَّتِي قَبلَهَا، ولَا مِنَ السُّورةِ الَّتِي بعْدَهَا، وعَلَى هَذَا فلا تُحسَبُ مِنْ آيَاتِهَا، فالفَاتحَةُ مثَلًا افتُتِحَتْ بالبَسملَةِ، والبَسمَلَةُ ليسَتْ منْهَا، بَلْ هِيَ آيَـةٌ مُستقِلَّـةٌ، وأوَّلُ الفَاتحَـةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، والدَّلِيـلُ عَلَى هَذَا مَا جَـاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحيحِ مِنَ اللهِ، قَالَ فِي الحَدِيثِ القُـدسيِّ: «قَسمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ: فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَـالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَـالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ اللهُ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ اللهُ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»(١) فبَدَأ بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويَدُلُّ عَلَى هَـذَا أيضًا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ لَا يَجْـهَرُ بِهَا -أَيْ: بالبَسْمَلَـةِ- فِي القِراءَةِ الجَهْرِيَّةِ، ولَوْ كانَتْ مِنَ الفاتِحَةِ لجَهَرَ بها كَسَائِرِ آياتِهَا.

ويَدُلُّ عَلَى هَذَا أنَّ اللهَ تعَالَى قَسَمَهَا بينَهُ وبَيْنَ عبْدِهِ نِصْفَينِ، فثَلاثُ آياتٍ للهِ، وثلاثَ آياتٍ للعَبْـدِ، ووَاحِـدَةٌ بينَهُما، فالثَّـلاثُ الآياتِ للهِ هِيَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤]، والثَّلاثُ الَّتِي للعَبْدِ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، والمُشتَرَكَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فتَجِدُ هَذِهِ المُشترَكَةَ هِيَ النِّصفُ، وهِيَ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ نِصفَينِ، هِيَ النِّصْفُ مِنْ بَيْنِ سَبْعِ آياتٍ.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: نحْنُ نجِـدُ في المُصحفِ أنَّ البَسْملَةَ قَـدْ رُقِّمَتْ عَلَى أَنَّهَا مِـنْ آياتِها، وأنَّ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَدْ جُعِلتْ آيَةً واحدَةً.

فالجَوابُ: أنَّ هَذَا عَلَى رَأْيِ بَعْضِ العُلَماءِ، وكَأَنَّ الَّذِين طَبَعُوا المُصحَفَ أَوَّلَ مَا طَبَعُـوهُ، طَبَعُوه عَلَى هَذَا الرَّأيِ، واستمَرَّ النَّاسُ عَلَيْهِ، عَلَى أَنِّي وَجَـدْتُ مُصحَفًا مَطبُوعًا فِيهِ أَوَّلُ آيَةٍ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والْآيَةُ السَّابِعَةُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، والبسمَـلَةُ لَمْ تُرقَّمْ، وهَـذَا هُوَ المُطابِقُ للصَّوابِ.

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أيضًا أنَّ الآياتِ لَا تَكُونُ مُتناسِبَةً فِي الطُّولِ والقِصَرِ إِلَّا إِذَا قسَمْنا الْآيَةَ الأخيرَةَ قِسمَينِ؛ لأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ صارَتِ الْآيَةُ هَذِهِ طَوِيلَةً بالنِّسبَةِ

لبقيَّةِ الآياتِ، فلَا تَناسُبَ، فعَلَى كُلِّ حَالٍ: القَوْلُ الرَّاجِحُ المُتعيِّنُ أنَّ أوَّلَ الفَاتِحَةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنَّ البَسملَةَ ليسَتْ منْهَا كسَائِرِ السُّوَرِ.

فقِيلَ: البسملَـةُ جملَةُ مَعمُولٍ مجرُورٍ بالبَـاءِ؛ لأَنَّ كُلَّ اسْمٍ مجرُورٍ بالبَـاءِ فإِنَّهُ مَعمُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ. فلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ محذُوفٍ، ولهَذَا قَالَ النَّاظِمُ:

لَا بُـدَّ لِلْجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ بِفِعْـلٍ اوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوَ مُرْتَقِـي

البَسْمـلَةُ مَعمُولةٌ لعَامِلٍ محذُوفٍ، والقاعِـدَة: كُلُّ اسْمٍ مجـرُورٍ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ، فأَيْنَ عَامِلُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟

نَقُولُ: العَامِلُ محذُوفٌ يُقدَّرُ فعْلًا مُتأخِّرًا مُناسِبًا للمَقَامِ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ فإِذَا أَرَدْنا أَنْ نَقرَأَ فأَقُولُ: بسْمِ اللهِ. فقَدِّرِ العَامِلَ: (أَقْرَأُ)، فالتَّقدِيرُ (بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ).

ولَوْ سأَلْتَ: لمَاذَا نُقدِّره فعْلًا ولم نُقدِّرْه اسْمًا، فنَقُولُ: (باسمِ اللهِ قِرَاءَتِي)؟

فالجَوابُ: الأَصْلُ في العمَلِ الأفعَالُ؛ ولذَلِكَ لا تَجِدُ اسْمًا عامِلًا إِلَّا بشُرُوطٍ.

وَدَليلُ ذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنِ اسْمٍ يَكُونُ عَامِلًا إِلَّا بشُرُوطٍ، لمَاذَا قَدَّرناهُ مُتأَخِّرًا ولَمْ نَقُلْ: (أَقرَأُ باسْمِ اللهِ)؟

الجواب: لفَائِدَتَيْنِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: التَّبرُّك ببدَاءَةِ الكَلَامِ باسم الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحَصْرُ، يعْنِي: باسْمِ اللهِ لَا باسْمِ غَيرِهِ؛ لأَنَّهُ إِذَا تَقدَّم المَعمُولُ عَلَى العَامِلِ كَانَ ذَلِكَ دليلًا عَلَى الحَصْرِ، يَعْنِي: الاختِصَاصَ، فكَأَنَّ القَارِئَ يَقُولُ: باسْمِ اللهِ أَقرَأُ لَا باسْمِ غَيرِهِ.

وقدَّرنَاهُ فِعْلًا مُناسِبًا؛ لأَنَّهُ أدَلُّ عَلَى المَقصُودِ؛ فمَثَلًا هُنَا نُرِيدُ أَنْ نَقْرَأَ، نَقُولُ: التَّقدِيرُ: باسْمِ اللهِ أَقْرَأُ.

ولَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَمِاذَا لَا نَقُولُ: باسْمِ اللهِ أَبتَدِئُ؟ قُلْنَا: لأَنَّ كلمَةَ (أَبتَدِئُ) صالِحَةٌ لكُلِّ فِعْلٍ يُبتَدَأُ بِهِ، وإِذَا قُلْتَ: (أَقْرَأُ) صَارَ خَاصًّا، وهُوَ أَدَلُّ عَلَى المَقْصُودِ، هَذَا تَقْرِيرُ إعرَابِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كُلَّما أَتَتْكَ.

أما عِندَمَا يُقَدَّمُ الغَدَاءُ فتَقُول: باسْمِ اللهِ، فكَيْفَ نُقدِّرُه؟ **الجَوابُ**: أَتَغَدَّى، أَوْ آكُلُ الغَدَاءَ؛ لأَنَّهُ أخَصُّ.

وإذا أَردْتَ أَنْ تَشرَبَ تَقُولُ: باسْمِ اللهِ أَشْرَبُ. وإذا أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ المسجِدَ تَقُولُ: بسْمِ الله أدْخُل. وهَلُمَّ جرًّا.

أَمَّا قَولُنا: باسْمِ اللهِ. فالمُرادُ: بكُلِّ اسْم لله، وإِنَّما حمَلْنَاهَا عَلَى العُمُومِ؛ لأَنَّ المُفرَدَ إِذَا أُضِيفَ صَارَ فِي العُمُومِ. أَيْ: أَبتَدِئُ بِكُلِّ اسْمٍ مِنْ أَسْماءِ اللهِ.

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: ذُو الرَّحمَةِ الواسِعةِ.

وقوله: ﴿الرَّحِيمِ﴾ أَيْ: ذُو الرَّحمَةِ الخَاصَّةِ بالمُؤمِنِينَ؛ كَما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].



الآيــة (١)

• • ●

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ﴾ [الزخرف:١].

• • ●

قَالَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [اللهُ أَعلَمُ بمُرادِهِ بِهِ].

﴿حمٓ﴾ هَذَانِ حَرْفَانِ هِجَائِيَّانِ؛ أحدُهُما حَاءٌ، والثَّانِي مِيمٌ، لَا إعْرَابَ لَهُمَا، وهَلْ لَهُمَا مَعْنًى؟ يَقُولُ المُفسِّرُ: [اللهُ أَعلَمُ بمُرادِهِ بِهِ]؛ إذَنْ: لَا نَدْرِي هَلْ لَهَا مَعْنَى أَوْ لَا، ولَا نَدْرِي مَا المُرادُ بالمعْنَى، فمَوقِفُنَا مِنْ هَذَا التَّفويضُ، فاللهُ أعلَمُ؛ وهكَذَا يُقَالُ فِي كُلِّ حرْفٍ هِجَائيٍّ ابتُدِئَتْ بِهِ السُّورةُ، مثْلَ: ﴿حمٓ﴾ [الزخرف:١]، ﴿الٓر﴾ [يوسف:١]، ﴿نٓ﴾ [القلم:١]، ﴿قٓ﴾ [ق:١]، ﴿صٓ﴾ [ص:١]، وَمَا أَشْبَهَها.

فالمُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: مَا لَنَا ولتَفْسيرِهَا، [اللهُ أَعلَمُ بمُرادِهِ بِهِ]، قَدْ يَكُونُ أَرَادَ مَعْنًى، وقَدْ يَكُونُ لَمْ يُرِدْ مَعْنًى، وقَدْ يَكُونُ أَرَادَ مَعْنًى تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّورَةُ، وقَدْ يَكُونُ معْنًى آخَرَ، ولكِنَّ القَوْلَ هَذَا ضَعِيفٌ.

والصَّوابُ أَنْ نَقُولَ: لَا معْنَى لَهُ، لَيْسَ المُرادُ أَنَّهُ حَشْوٌ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، لكِنَّ المَقْصُودَ: لَا معْنَى لَهُ ذَاتيًّا؛ بدَليلِ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]، وقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، وقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] ثَلَاثُ آيَاتٍ.

واللِّسانُ العَربيُّ لمْ تُوضَعْ فِيهِ حُرُوفٌ هِجَائِيَّةٌ لَهَا مَعْنًى، وإِنَّمَا وُضِعَتْ فِيهِ حُرُوفٌ هجَائيَّةٌ لتَركِيبِ الكَلَامِ مِنْهَا، وهِيَ فِي اللُّغةِ العَربيَّةِ ثَمانيَةٌ وعِشرُونَ حَرْفًا، عِنْدَما تَقْرَأُ: ألفٌ، بَاءٌ، تَاءٌ، ثَاءٌ، جِيمٌ، حَاءٌ، خَاءٌ، فلَيْسَ لَهَا مَعْنًى، إنَّمَا هِيَ حرُوفٌ تُكوَّن منهَا الكلِمَاتُ، فإِذَا كَانَتْ كذَلِكَ -والقُرآنُ الكَرِيمُ نَزَل بلِسَانٍ عَربيٍّ-؛ فإِنَّنَا نَجْزِمُ بأَنَّهُ ليْسَ لهَذِهِ الحرُوفِ مَعْنًى، وإذَا كَانَ قَدْ أَرادَ بهَا شَيْئًا نَقُولُ: لَا يُمكِنُ أَنْ يُريدَ بهَا شَيْئًا وهُوَ نَازِلٌ باللِّسانِ العرَبِيِّ، واللِّسانُ العرَبيُّ لَا يَجْعَلُ لهذِهِ الحُرُوفِ الهِجَائيَّةِ مَعْنًى، فنحْنُ نَجزِمُ لقَولِهِ: ﴿عَرَبِيٌّ﴾ [النحل:١٠٣][1].

فقَولُهُ: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢] فـ﴿طه﴾ ليْسَ اسْمًا مِنْ أَسمَاءِ الرَّسُول، بَلْ هِيَ مِثْل ﴿الٓر﴾، ﴿حمٓ﴾، حَرْفَانِ هِجائِيَّانِ ليْسَ لهُما مَعنًى، وإِذَا قَالَ الإنسَانُ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ خِطَابٌ؟

نَقُولُ: إِذَنِ اجْعَلْ ﴿نٓ﴾ مِنْ أَسمَاءِ الرَّسُول؛ لأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:١-٢] ولَا قَائِلَ بِهِ.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا الفائِدَةُ مِنْ هَـذِهِ الحُرُوفِ الهِجَائيَّةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا معْنًى فِي حَدِّ ذَاتِهَا؟

أَقُولُ: الفَائدَةُ أَشَارَ إِليهَا شَيْخُ الإسلَام ابْنُ تَيمِيَّةَ[2] وغيرُهُ مِنَ العُلَماءِ الَّذِينَ سَبقُوهُ ولَحِقُوهُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وهِيَ التَّنبيهُ عَلَى أَنَّ هَذَا القُرآنَ الكَرِيمَ الَّذِي عَجزَ النَّاسُ أَنْ

---

(١) وانظر: تفسير سورة البقرة لفضيلة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٢٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

يَأْتُوا بِمِثْلِه لَمْ يَأتِ بِحُرُوفٍ جَدِيدَةٍ فَيَحتَجَّ النَّاسُ ويَقُولُونَ: هَذِهِ حرُوفٌ لَا نَعرِفُها فهِي جدِيدَةٌ. فالقُرآنُ الكَرِيمُ جَاءَ بالحُرُوفِ المَعرُوفَةِ عنْـدَ المُخاطَبِينَ، ومَعَ ذَلِكَ أَعجَزَهُم.

قَالَ شَيْخُ الإسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرُهُ: ولذَلِكَ لَا تَجِدُ سورَةً مُفتَتَحَةً بِهَذِهِ الحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ إلَّا وجَدْتَ بعْدَها ذِكْرَ القُرآنِ.



الآيـة (٢)

• ● ●

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف:٢].

• ● ●

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ الوَاوُ حرْفُ قَسَمٍ، وفسَّرَهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّه [القُرآنُ]؛ لأنَّ اللهَ تعَالَى سمَّى القُرْآنَ كِتَابًا فقَالَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وسُمِّيَ كِتَابًا:

١- لأنَّه كُتِب فِي اللَّوحِ المحفُوظِ.

٢- ولأنَّه كُتِب في المصَاحِفِ الَّتِي بأَيْدِي السَّفرَةِ الكِرَامِ البررَةِ.

٣- ولأَنَّهُ كُتِب فِي المصَاحِفِ الَّتِي بأَيْدِينَا.

وقَولُهُ: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُظهِر طرِيقَ الهُدَى ومَا يُحتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّريعةِ].

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ مِنْ أَبَانَ الشَّيءَ إذَا أَظهَرَهُ؛ فمَعْنَى كَونِهِ مُبينًا أَنَّهُ مُظهِرٌ للحَقِّ مُوضِّح لَهُ، بَلْ لِكُلِّ مَا يَحتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ.

فقولنا: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ مِنْ أَبَانَ الشَّيءَ إذَا أَظهَرَهُ؛ يَعْنِي: أنَّ القُرآنَ أَظهَرَ كُلَّ شيْءٍ يَحتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ في دِينِهِمْ ودُنيَاهُم؛ وقِيلَ: المرَادُ بـ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البيِّن. والأَعَمُّ أَنَّهُ مُظهِرٌ للحَقِّ؛ لأَنَّهُ لا يُظهِرُ الحَقَّ إِلَّا إِذَا كَانَ هُوَ ظَاهِرًا، وعَلَى هَذَا فَفَسِّرِ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ بأَنَّهُ المُظهِرُ، وإِنْ فسَّرْتَه بهِمَا فَلَا بأْسَ، فقُلْت: إنَّه بيِّن مُبينٌ؛ لأَنَّ الكلِمَةَ

إِذَا احتَـمَلَتْ معنيَيْنِ -وهذِهِ قاعِدَةٌ- لَا يُنَافِي أحـدُهُما الآخِرَ، ولَيْسَ أرْجَـحَ مِنْهُ؛ فإِنَّهَا تُحمَلُ علَيْهِمَا.

إِذَنْ: إذَا احتَمَل اللَّفظُ معنيَيْنِ مُتساوِيَيْنِ لَا يُنافِي أحـدُهُما الآخَرَ حُمِل علَيْهِما جميعًا.



الآيــة (٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ ﴾ يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوْجَدْنا الكِتَابَ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ بلُغةِ العَرَبِ، ﴿لَّعَلَّكُمْ ﴾ يا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿تَعْقِلُونَ ﴾ تفهَمُونَ معَانيهِ].

قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ ﴾ ضَمِيرُ الفَاعِلِ يَعُودُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وضَمِيرُ المَفعُولِ يَعُودُ عَلَى القُرآنِ، ومَعْنَى ﴿جَعَلْنَهُ ﴾ عَلَى كَلَامِ المُفسِّر: أَوْجَدْناهُ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾، والصَّوابُ أنَّ المَعْنَى: صَيَّرْنَاه قُرْءانًا عَربِيًّا، أَيْ: صَيَّرناهُ بلُغَةِ العَرَبِ. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أيْ: تَفْهمُونَ.

و﴿جَعَلْنَهُ ﴾ بمَعْنَى: صيَّرْناه، أحيانًا جَعَلَ تكُونُ بمَعْنَى صَيَّرَ، وأَحْيَانًا تَكُونُ بمَعْنَى خَلَقَ، حسَبَ السِّياقِ، إذَا نصبَتْ مفعُولَينِ فهِي بمَعْنَى صَيَّر، وإِذَا نَصبَتْ مَفعُولًا واحِدًا فهِي بمَعْنَى ﴿خَلَقَ ﴾ مِثْلَ قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] أَيْ: بمَعْنَى خلَقَ؛ لأنَّها لَمْ تَنْصِبْ إِلَّا مَفْعُولًا واحِدًا، أَمَّا إِذَا نَصبَتْ مَفْعُولَينِ فهِيَ بمَعْنَى صَيَّر.

والخِطَابُ فِي قَولِهِ: ﴿لَّعَلَّكُمْ ﴾ عَلَى كَلَامِ المُفسِّر يَعُودُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، والصَّوابُ أَنَّهُ يَعُودُ إِلَى العَرَبِ كُلِّهم؛ لأَنَّ العَرَبُ هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وغيرُهُم، فيَكُونُ المَعْنَى: صَيَّرناهُ بلُغَةِ العَرَبِ؛ لتَفهَمُوهُ أيُّها العرَبُ.

انْتَهَى الكَلَامُ عَنِ الآيَاتِ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ.

أَمَّا مِنْ حَيْثُ المَعْنَى: فاللهُ تعَالَى أَقْسَمَ بالقُرْآنِ أَنَّهُ جعَلَهُ باللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ أَجْلِ فَهْمِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جوَازُ القَسَمِ مَعَ تَأَكُّدِ صِحَّةِ الْمُقسِمِ بدُونِ القَسَم، يَعْنِي: جَوَازُ أَنْ يُقسِمَ الإنسَانُ عَلَى الشَّيءِ مَعَ أنَّ قولَهُ مَقبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وجْهُ الدَّلالَةِ: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَقسَمَ وقَولُهُ مَقبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ وصِدْقٌ بِلَا يَمِينٍ، حينَئِذٍ يَتولَّدُ مِنْ هَذَا: كَيْفَ يُقسِمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الشَّيءِ وهُوَ الصَّادِقُ بدُونِ قَسَمٍ؟

فنَقُولُ: لفَائِدَتَينِ:

الأُولَى: بيَانُ أَهميَّةِ هَذَا الشَّيءِ، وأَنَّهُ جَدِيرٌ بأَنْ يُقسَمَ عَلَيْهِ.

والثَّانيَةُ: أنَّ القَسَمَ مِنْ فصَاحَةِ الكَلَامِ فِي اللُّغةِ العَربيَّةِ، فإِذَا كَانَ مِنْ فَصَاحَةِ الكَلَامِ فالقُرآنُ نَزَل باللُّغةِ العربيَّةِ، فيَكُونُ هَذَا مُطابَقَةً بأُسلُوبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ.

ويَرِدُ على هَذَا القَسَمُ بالقُرآنِ: كَيْفَ أَقْسَمَ اللهُ بالقُرآنِ مَعَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ القَسَمُ بغَيْرِ اللهِ؟

والجَوابُ عَلَى هَذَا: أنَّ القُرآنَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ؛ لأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، والقَسَمُ يَجُوزُ باللهِ وبالصِّفةِ مِنْ صِفَاتِهِ، فزَالَ الإِشْكَالُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيَانُ عظمَةِ القُرآنِ؛ لأَنَّ اللهَ لَا يُقْسِمُ إِلَّا بشَيْءٍ عظِيمٍ، بَلْ إِنَّ القَسَمَ نَفْسَهُ -كَمَا قَالَ مَنْ فسَّرهُ- تأكِيدُ الشَّيءِ بذِكْرِ مُعظَّمٍ بِصِفَةٍ مخصُوصَةٍ بأَحَدِ حُرُوفِ القَسَمِ. وحرُوفُ القَسَمِ ثَلَاثَةٌ: الوَاوُ، البَاءُ، التَّاءُ.

مثَالُ الوَاوِ: قَولُهُ: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ والوُاوُ هِيَ أكْثَرُ مَا يُستَعْمَلُ فِي القَسَمِ.

ومِثَالُ البَاءِ: قَولُ القَائِلِ: أُقسِمَ باللهِ أَنَّ هَذَا حَقٌّ.

ومثَالُ التَّاءِ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ [الصافات:٥٦].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ مُبِينٌ لكُلِّ مَا يَحتَاجُ إِلَى البَيَانِ؛ لقَولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾. ولكِنَّ هَـذَا البيَانَ لَيْسَ حَـاصِلًا لِكُلِّ أحَدٍ، فمِنَ النَّاس مَنْ يَفْـهَمُ مِنَ القُرآنِ أشيَاءَ كثِيرَةً، ومِنَ النَّاسِ مَنْ هُـوَ دُونَ ذَلِكَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا؛ فالأقْسَامُ ثَلَاثَةٌ؛ فمِنَ النَّاسِ مَنْ يفْتَحُ اللهُ عَلَيْهِ فيَفْهَمُ مِنَ الْآيَة الوَاحِدَةِ عَشَرَاتِ المسَائِلِ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا.

ولهَذَا لَمَّا سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عَهِدَ إلَيكُمُ النَّبيُّ ﷺ بشَيْءٍ؟ قَالَ: «**لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الحبَّةَ وَبَرأَ النَّسمَةَ، مَا عَهِدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ، إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ فِي الْقُرْآنِ، وَإِلَّا مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ**»(١)، وإنَّما سُئِلَ عَلِيٌّ عَنْ ذَلِكَ لأَنَّهُ أُشِيعَ فِي زَمَنِهِ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إِلَيْهِ بالخِلَافَةِ وقَالَ: أَنْتَ الخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِي. فبَيَّنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، والشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الأَثرِ قَولُهُ: «**إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ**».

ولذَلِكَ تَرَى بعضَ العُلَماءِ إِذَا تَكلَّمَ عَنِ الْآيَة مُستنبِطًا فَوائِدَها يَأْتِي بالعَجَبِ العُجَابِ، ومِنْ أَبْلَغِ مَا قَرَأْتُ مَا يَحْصُلُ لشَيْخِ الإسلَامِ ابْنِ تيمِيَّةَ وتلمِيذِهِ ابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ؛ فإِنَّ اللهَ يَفْتَحُ عَلَيْهِما مِنْ فَهْمِ القُرآنِ مَا لَا يَكُونُ لغَيرِهِما، ومِنَ النَّاسِ مَنْ فَهمُهُ دُونَ ذَلِكَ، لكِنْ درجَاتٌ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧٠).

والدَّلِيلُ الأَخِيرُ قَولُهُ تعالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، يَعْنِي: إِلَّا قِراءَةً، جمْعُ أمنيَّةٍ، ومِنْهُ قَولُ الشَّاعِرِ فِي أَمِيرِ المُؤمنِين عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ المَوَارِدِ[1]

معْنَى (تَمَنَّى كتَابَ اللهِ) أَيْ: قرَأَ كِتَابَ اللهِ؛ لأَنَّ أَمِيرَ المُؤمنِينَ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ شهِيدًا فِي دَارِهِ وهُوَ يَتهجَّدُ ويَقْرَأُ القُرآنَ، فالَّذِي لا يَفْهَمُ لا يَقْدَحُ في كَونِ القُرآنِ تِبْيانًا لكُلِّ شَيْءٍ؛ لأنَّ القُرآنَ في حَدِّ ذَاتِهِ تِبيانٌ لكُلِّ شَيْءٍ، كَما أَنَّ الجَبَانَ الَّذِي بيَدِهِ سَيْفٌ بتَّارٌ لَا يُقدِم فيَقتُل به، وليْسَ هَذَا عَيْبًا في السَّيفِ.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ أَشياءَ لَا مجَالَ للعِلْمِ فِيهَا فأَيْنَ بيَانُها؟

قُلْنا: بيَانُها فِي قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] فِيما يَتَعلَّقُ بالصِّفَاتِ؛ لأَنَّ بيانَهَا عَلَى وَجْهِ التَّفصِيل لَا تحتَمِلُهُ العُقولُ، فكَانَ مِنَ الحِكمَة أَلَّا تُفصَّل، وإِلَّا فهُوَ تِبيانٌ لكُلِّ شَيْءٍ.

ذُكِر أنَّ أحَدَ العُلماءِ كَانَ فِي مَطْعَمٍ، وكَانَ فيه رَجُلٌ مِنَ النَّصارَى، فاستَغَلَّ النَّصرانيُّ الفُرصَةَ ليُلقِيَ عَلَى هَـذَا العَالِمِ سُؤَالًا يَتحدَّاهُ بِهِ، فأَتَى إِلَيْهِ وقَالَ لَهُ: أَيُّها الشَّيخُ. قَالَ: نَعَمْ، مَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: القُرآنُ كِتَابُكم يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، ونحن نَصنَعُ هذَا الطَّعَام فأَيْنَ هَذَا فِي القُرآنِ؟ وكَانَ العَالمُ المُسلِمُ ذكيًّا، قَالَ: هَذِهِ مَوجُودَةٌ فِي القُرآنِ، أي مَوجُودٌ كَيْفَ نَصْنَعُها، قَالَ: أَيْنَ هُوَ؟ فنَادَى الطَّبَّاخَ، وقَالَ: كَيْفَ صَنعْتَ هَذَا؟ فجَعَلَ الطَّبَّاخُ يَشرَحُ لَهُ، فقَالَ:

(١) غير منسوب، وانظره في: العين (٨/ ٣٩٠)، وسيرة ابن هشام (١/ ٥٣٨)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٠٥).

هكَذَا جاءَ فِي القُرآنِ. قالَ: كَيفَ؟ قالَ: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قالَ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]. فأَحالَنَا فِيما لَا نَعْرِفُ عَلَى مَنْ يَعرِفُ، وهَذَا بيانٌ، فلَمَ نَتحَيَّرُ الْآنَ فِي مَعرِفَةِ كَيْفَ تُصنَعُ هذَا الطَّعَام؟!

لَوْ قالَ لَنا قَائِلٌ: القُرآنُ تِبْيَانٌ لكُلِّ شَيْءٍ، فكَيْفَ نَصنَعُ هَذَا التِّليفُونَ؟ هَلْ فِي القُرْآنِ وصْفٌ لصِناعَتِهِ؟ أيْنَ ذِكْرُهُ فِي القُرْآنِ؟

نقُولُ: الحمْدُ لله، اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَحالَنَا إِلَى سُؤَالِ مَنْ يَعرِفُ إِذَا كُنَّا لَا نَعْرِفُ، وهَذَا بيَانٌ، فلَم يُوقِفْنا مُتحيِّرِينَ.

إِذَنْ: في هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ القُرآنَ مُبينٌ لكُلِّ شيْءٍ، ولكِنَّ القُرآنَ يَحتاجُ إِلَى تَدبُّرٍ، وبدُونِ التَّدبُّر لَا يُمكِنُ أَنْ تَهتَدِيَ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّكَ كُلَّما أَمعَنْتَ وتَعمَّقْتَ فِي تَدبُّرِ القُرآنِ فَتحَ اللهُ لَكَ مِنْ أَبْوابِ المعرِفَةِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ، وصِرْتَ تَستنْبِطُ مِنَ الْآيَة الواحِدَةِ مِنَ الأحكَامِ مَا لَا يَستنْبِطُهُ غَيرُكَ، فاحْرِصُوا عَلَى هَذَا التَّدبُّرِ.

الْآنَ -ولله المثَلُ الأَعْلَى- فِي كَمْ يومًا خَلقَ اللهُ السَّمواتِ والأَرضَ؟! لَوْ شَاءَ لخلَقَها فِي لحْظَةٍ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لكِنَّه خلقَها في سِتَّة أَيَّامٍ؛ ليَعلَمُ العِبادُ أنَّ الإِتْقَانَ خَيْرٌ مِنَ العَجلَةِ، ولأَنَّ هَذَا الخَلْقَ لَهُ سُنَنٌ وقَواعِدُ وأسبَابٌ كَونِيَّةٌ يَنتُج شَيئًا فشيئًا، فأَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُبيِّن للعِبادِ أنَّ المُهِمَّ هُوَ الإِتْقَانُ والإحكَامُ دُونَ السُّرعَةِ، ولَوْ أَرَادَ اللهُ لكَانَ فِي لحْظَةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابعَةُ: أنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذِي أَعجزَ العَرَبَ مِنَ الحُرُوفِ الَّتِي يُركِّبُون مِنْهَا كَلامَهُمْ وَمَعَ ذَلِك أَعجزَهُم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ مَكتُوبٌ، وهُوَ مَكتُوبٌ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ، ومَكتُوبٌ فِي الصُّحفِ الَّتِي بأَيْدِي المَلائكَةِ، ومَكتُوبٌ فِي الصُّحفِ الَّتِي بيْنَ أَيْدِينَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ حَادِثٌ؛ يَعْنِي: أَنَّهُ بإِرَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقَولِهِ تعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ واللهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجعَلَهُ بلُغَةٍ أُخْرَى لكِنْ صيَّرَهُ باللُّغةِ العربيَّةِ.

ومَعْلُومٌ أنَّ العَرَبَ حَادِثُون، فيَكُونُ مَا نَزَلَ باللُّغـةِ حَادِثًا، وهَذَا هُوَ الحَقُّ؛ أنَّ كلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَادِثٌ، بمَعْنَى: أَنَّهُ يَتكَلَّمُ مَتَى شَاءَ، ومَتَى شَاءَ لَا يَتكَلَّمُ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ»[1].

قُلْنَا: إنَّ كلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَادِثٌ. والمَعْنَى: أَنَّهُ يُحدِثُ مِنْ كَلَامِهِ مَا شَاءَ. ومِنْ أُصُولِ أهْـلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ: أنَّ اللهَ يَتكَلَّـمُ بكَلَامٍ حقِيقيٍّ مَتى شَاءَ، بِمَا شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ، أَلَمْ تَعلَمُوا أنَّ الأشعرِيَّةَ الَّذِين يَنتَسِبُونَ إِلَى أَبِي الحَسَنِ الأشعَرِيِّ يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ لَا يَتكَلَّـم مَتَى شَاءَ أبـدًا. قَالُوا: لأَنَّ الكلَامَ مَعْنًى قَائِمٌ بنَفْسِهِ، أزَلِيٌّ، لكِنَّهُ يُحْدِث أَصْواتًا يَخلُقُها مَتَى شَاءَ فتُسمَع. فيَرَون أنَّ الكلَامَ لَا يَتَعَلَّقُ بمَشيئَتِهِ.

فأيُّهما أكمَـلُ مَنْ يتكَلَّم بمَشِيئَتِهِ، وبِمَا شَاءَ، وكَيْفَ شَاءَ، أَمْ مَنْ لَا يَسـتَطِيعُ هَذَا؟

الجَـوابُ: الأوَّلُ، لكِنْ أبَتْ بدعَتُـهُم إلَّا أَنْ يَقُولُوا بالثَّانيَةِ، وقَدْ أَلَّـفَ شَيْخُ الإِسلَامِ ابْنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ كتَابًا سَمَّاهُ (التِّسعينيَّة) بيَّن بُطلَانَ هَذَا القَوْلِ مِنْ تِسعِينَ وجْهًا رحمه الله وجزَاهُ عَنِ الأُمَّةِ خَيْرًا.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٢١) رقم (٥٨٩)، والدارقطني (٤/ ١٨٣)، البيهقي في السنن (١٠/ ١٢)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وهَلْ يجُوزُ وَصْفُ القُرآنِ بالحُدُوثِ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، مُحدَثٌ وحَادِثٌ؛ قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥] لكِنْ لَا تَظُنَّ أَنَّ معْنَى مُحْدَث أَيْ: أَنَّهُ مَخْلُوق، لَا، مُحْدَثٌ يَعْنِي: أَنَّ اللهَ تَكَلَّم بِهِ حِينَ نُزُولِهِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا القَوْلُ الرَّاجِحُ فِي نُزُولِ القُرآنِ، أَنَّهُ نُزُولٌ وَاحِدٌ أَوْ نُزُولانِ: نَزَلَ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا، ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْنَا؟

فالجَوابُ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ نُزُولٌ وَاحِدٌ، نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تَكَلَّم بِهِ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ سَمِعَهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى القَوْلِ بأَنَّ للقُرآنِ نُزُولًا وَاحِدًا كَيْفَ نُفسِّرُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]؟

فالجَوابُ: نُفسِّر هَذَا بأَنَّ اللهَ تعالى بدَأَ إنزَالَهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ كَوْنَ القُرآنِ باللُّغةِ العربيَّةِ مَنقَبةٌ كُبْرَى للعَرَبِ: أَنْ يَكُونَ القُرآنُ العَظِيمُ نزَلَ بلُغَتهِمْ؛ لقَولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَـذِهِ عَصبيَّةٌ وحميَّةٌ للعَرَبِ ويَفتـخِرُ بهَا العَرَبُ المُلحِدُون فَما الجَـوابُ؛ لأَنَّ هَذَا مُشكِـلٌ، فالعَرَبُ المُلحِدُون الَّذِين يبنُـونَ الوَلَاءَ والبرَاءَ عَلَى القَوميَّةِ العَربيَّةِ يَفْخَرُونَ بهَذَا!.

فنقُولُ: مَنْ كَانَ كَافِرًا فَلَا فَخْرَ، ولَوْ كَانَ مِنْ صَمِيمِ العَرَبِ؛ والدَّلِيلُ: أَبُو لَهَبٍ عَمُّ النَّبيِّ ﷺ أَنزَلَ اللهُ فِي حَقِّهِ سُورَةً كَامِلَةً تُتلَى فِي الصَّلَاةِ، وفِي المَساجِدِ، وفِي كُلِّ مَكَانٍ ممَّا يُتلَى فِيهِ القُرآنُ إِلَى يَومِ القِيامَةِ فِي ذَمِّه، وهُوَ مِنْ صَمِيمِ العَرَبِ عَمِّ النَّبيِّ

صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ، فالعُروبَةُ لَا تُغنِي شَيْئًا مَعَ الكُفْرِ، فإذَا اجتمَعَ الدِّينُ والدُّنيا فَمَا أحْسَنَ الدِّينَ والدُّنيَا إِذَا اجتَمَعَا: صَارَ مُسلِمًا وعَرَبيًّا.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ فِي القُرآنِ مِنَ الكلِمَاتِ مَا لَيْسَ بعَرَبِيٍّ؟

فالجَوابُ: لَا، أبـدًا، كُلُّ مَا فِي القُرآنِ عربِيٌّ، لكِنَّ بعـضَهُ مِنْ صَمِيمِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ، وبعـضَهُ مُعرَّب، أَي: أَصْلُهُ غَيرُ عربِيٍّ لكنَّهُ عُرِّب، وإذَا عُرِّبَ صَارَ عَرَبيًّا، فإنَّهُ لَمَّا تكَلَّم بِـهِ العَرَبُ صَارَ عربيًّا للاستِعْمَالِ وإنْ كَانَ أَصْلُـهُ غيرَ عربِيٍّ؛ أرَأَيْتَ أنْتَ إِذَا أخذْتَ الجِنْسِيَّةَ فِي بَلَدٍ تكوُنُ منهُمْ، وأنْتَ فِي الأَصْلِ مِنْ غَيرِهِمْ، فلَيْسَ فِي القُرآنِ مَا لَيْسَ بعَرَبِيٍّ.

وأمَّا قَولُه تَعالَى: ﴿سُندُسٍ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فإنَّ هَذِهِ عُرِّبت فصَارَتْ مِنْ كَلَامِ العَرَبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الحُجَّـة لَا تَكونُ إِلَّا بالفَهْمِ، أَيْ: أنَّ الحُجَّةَ لَا تَقُوم عَلَى العِبَادِ إِلَّا إِذَا فهِمُوها؛ لقَولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والعَقْـلُ هُنَا بمَعْنَى الفَهْمِ، فَلَوْ تُلِيَ القُرآنُ عَلَى رَجُـلٍ أَعْجميٍّ لَا يَعرِفُ معنَـاهُ ولَمْ يُقَلْ لَهُ: هَـذَا كَلَامُ اللهِ. فإِنَّهُ لَا حُجَّةَ قَائمَةٌ، ويدُلُّ لهَذَا قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فهذِهِ مسأَلَةٌ عظِيمَةٌ؛ الحُجَّةُ لَا تَقُومُ عَلَى العِبَادِ إِلَّا بفَهمِهَا ومعرِفَةِ مَعْناهَا، وإِلَّا فأَيُّ حُجَّةٍ فِي رَجُلٍ يتكَلَّمُ بكَلَامٍ لَا نَفهَمُه؟! لَا حُجَّةَ؛ ولذَلِكَ لَوْ قَامَ أعجمِيٌّ أمَامَنا ونحْنُ عربٌ لَا نَعرِفُ لُغتَهُ وتَكَلَّم بأفصَحِ مَا يكُونُ فِي لُغتِهِ لَا نفهَمُ شَيْئًا أَبَدًا؛ فلَا بُدَّ مِنْ فَهمِ الحُجَّةِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُكُم: إنَّ الحُجَّـةَ لَا تَقُوم إِلَّا بفَهمِهِ، هَل يَنبَنِي عَلَى هَـذَا أنَّ القُبوريِّينَ الَّذِين لَمْ يَفهمُوا بَابَ العِبَادَةِ حَقَّ الفَهْمِ -ويَقْرَؤُون القُرآنَ- أنَّهُم معذُورُون

بذَلِكَ؛ لأَنَّ البعْضَ يَقُولُ: الحُجَّةُ قَائمَةٌ بوجُودِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ؟

فالجَوابُ: هؤُلاءِ مُقصِّرُون، يَعْنِي: أَنَّهُم يُعرَض عليهِمُ الحَقُّ ولكِنَّهُم لَا يَقبَلُونَهُ، لكِنْ لَوْ فَرَضْنا أنَّ أُنَاسًا بَعِيدِينَ عَنِ المُدُنِ وعَنِ العِلْمِ، وهُمْ مُسلِمُونَ، يُصَلُّونَ، ويَعمَلُونَ كُلَّ أعمَالِ الإسلَامِ وهُمْ قُبورِيُّون، هؤُلاءِ لَمْ تُقَمْ عليهِمُ الحُجَّةُ، لكِنَّ غَالِبَ القُبوريِّينَ الْآنَ -إنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّهم- قَدْ قِيلَ لَهُمْ: إنَّ هَذَا شِرْكٌ، ولكِنْ قصَّرُوا وقَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

وإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ فَهْمُ القُرآنِ يَكُونُ عَلَى حَسبِ ذَكَاءِ الشَّخْصِ أَوْ عَلَى حسبِ تَقْوَاهُ للهِ جَلَّ وَعَلَا؟

فالجَوابُ: عَلَى هَذَا وهَذَا؛ ولذَلِكَ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِلَّا فَهمًا يُؤْتِيهِ اللهُ تَعالَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبادِهِ»[1]، والتَّقْوَى لَهَا تأْثِيرٌ فِي فَهْمِ القُرآنِ الكَرِيمِ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وَقَالَ فِي القُرْآنِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَاذَا تَقُولُون فِي قَولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] وَلَمْ يَقُلْ: ومَنْ فَهِمَهُ؟!

فالجَوابُ: أَنْ نَقُولَ ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ مُقيَّدٌ بالنُّصوصِ الأُخْرَى الدَّالَّةِ عَلَى أنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الفَهْمِ. أَوْ يُقالُ: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ مِنَ العَرَبِ الَّذِين يَفهَمُونَهُ، ولَا بُدَّ مِنْ هَذَا، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ أرْحَمُ وأحكَمُ مِنْ أَنْ يُلزِمَ العِبادَ بِمَا لَا يَفهَمُونَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧٠).

فإنْ قِيل: سِيَاقُ الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] إنَّما كَانَ فِي رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ فهَلْ يَصِحُّ الاستِشْهَادُ بِهِ عَلَى العُمُومِ؟

فالجَوابُ: نعَمْ يَصِحُّ؛ لأَنَّ العِبرَةَ بعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّببِ.

فائدة: بعضُ النَّاسِ يَستَنْبِطُ مِنَ الآيَاتِ مَا لَا تَحتَمِلُهُ الآيَاتُ، أرأيتُمْ أوَّلَ مَا خرَجَ وُصولُ البشَرِ إِلَى القَمَرِ -ولعَلَّهُ حصَلَ قَبْلَ أَنْ يُميِّزَ أكثَرُكُمْ، أكثرُكُمْ شَبَابٌ والحَمْدُ لله- لَمَّا حدَثَتْ هذِهِ الحَادِثَةُ وقَالُوا: إنَّ البَشَرَ وَصلُوا إِلَى القَمرِ وأخذُوا منْهُ عيِّـنةً وجَاؤُوا بهَا إِلَى الأَرْضِ وادَّعَـوْا أَنَّها مِنَ القَمَرِ، أحجَـارٌ سوداءُ رأَيْنَاها، قَالَ النَّاسُ: هَذَا مَوجُود فِي القُرآنِ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يقُولُ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣] أيْ: بعِلْمٍ، وهؤُلاءِ وَصَلُوا إِلَى أقطَارِ السَّمواتِ بالعِلْمِ، فقَالُوا: هذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا.

لكِنَّ هَذَا التَّفسِيرَ مُحرَّم، وقَولٌ عَلَى اللهِ، وكذِبٌ عَلَى اللهِ، فإِنَّ الْآيَةَ فِي سِيَاقِ التَّحدِّي ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، ولا يُمكِنُ أَنْ يَتَحدَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أحَدًا بِمَا يستَطِيعُ، التَّحدِّي مَعناهُ أنَّ المُخاطبَ لَا يستَطِيعُ، هذِهِ وَاحِدَةٌ.

ثَانيًا: الْآيَةُ ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ فبَدَأَ بالسَّمواتِ، فلَا يُمكِنُ لهؤُلاءِ أَنْ يَنفُذُوا مِنْ أقطَارِ السَّمواتِ، وإِذَا كَانَ أفضَلُ رَسُولٍ فِي البَشَرِ، وأفضَلُ رَسُولٍ فِي المَلَائكَةِ لَمْ يَدْخُلِ السَّماءَ الدُّنيَا إِلَّا باستِفْتَاحٍ وإِذْنٍ فكَيْفَ بهَؤُلاءِ؟!

فهؤُلاءِ إِنْ نفَذُوا مِنْ أقطَارِ الأَرْضِ لَمْ يَنفُذُوا مِنْ أقطَارِ السَّمواتِ.

ثَالثًا: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بعْدَ قولِهِ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ قَالَ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥] وَلَمْ يُرسَلْ عَلَى هَـؤُلاءِ شُواظٌ مِنْ نَارٍ ونُحَاسٌ؛ فتَفسيرُ القُرآنِ بِمَا لَا يَحتَمِلُه هَذَا مُحرَّم؛ لأَنَّ المُفسِّر يَشْهَدُ أَنَّ اللهَ أَرَادَ كَذَا.

ومِثْلُ قَولِ بعضِهِمْ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] قَالَ: هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أنَّ الأَرْضَ تَدُور.

والمَسأَلَةُ هذِهِ حَصَلَ فِيهَا مَعرَكَةٌ كَبِيرَةٌ: هَلِ الأَرْضُ تَدُورُ أَوْ لَا تَدُورُ؟ وكُتِبت فِي ذَلِكَ مَنشُوراتٌ فِي الصُّحفِ ورسَائِلُ صَغِيرَةٌ؛ إِنْكَارًا وتَأْيِيدًا، فجَاءَ هَذَا الرَّجُل المُتعلِّم فقَالَ: هَـذِهِ فِي القُرآنِ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قِيلَ: هَذَا يومَ القِيَامَةِ. قَالَ: يومَ القِيامَةَ لَا يُمكِنُ أَنْ يُرَى الشَّيْءُ إِلَّا عَلَى حقِيـقَتِهِ، لَا يَرَاهُ عَلَى غَيرِ حقـيقَتِهِ. فقِيلَ لَهُ جَوَابًا عَلَى هَـذَا: أَلَمْ تَقْرَأْ قَولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج:١-٢] فهَذَا رؤْيةُ الشَّيءِ عَلَى غَيْرِ حقيقَتِهِ، وهُوَ مُمكِنٌ؛ فالْآيَةُ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يَوْمَ القِيامَةِ ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لأَنَّها تَكُونُ هَبَاءً.

فهَذَا أَيْضًا مِنَ الغَلَطِ، وتَحْمِيلِ القُرآنِ مَا لَا يَحْتَمِلُ.



الآيــة (٤)

• • ◆ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

• • ◆ • •

قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الضَّمِير يَعُودُ عَلَى ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، وهُوَ القُرآنُ ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هُوَ اللَّوحُ المحفُوظُ، وسُمِّي أُمًّا؛ لأَنَّهُ مَرجِعٌ لجَمِيعِ مَا يُكتَبُ مِنْ بعْدِهِ، والكِتَابَةُ أَنْواعٌ، والكِتَابَةُ العُظمَى العَامَّة الشَّامِلَةُ مَا كُتِبَ فِي اللَّوحِ المحْفُوظِ.

وقولُه: ﴿لَدَيۡنَا﴾ أَيْ: عِنْدَنا، والظَّرفُ هُنَا حَالٌ مِنْ ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يَعْنِي: أنَّ الَّذِي لَدَى اللهِ -فِي هَذِهِ الْآيَةِ- هُوَ ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أَيِ: اللَّوحُ المحفُوظُ عنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهُوَ محْفُوظٌ مِنَ التَّغيِيرِ والتَّبدِيلِ؛ لأنَّه أُمُّ الكِتَابِ.

وأمَّا الكُتُبُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الملَائِكَةُ فَفِيهَا تَغْيِيرٌ وتَبدِيلٌ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

وقولُه: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: ذُو عُلُوٍّ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ: ذُو حُكْمٍ وحِكمَةٍ، وَصْفانِ عظِيمانِ للقُرآنِ الكَرِيمِ وَصَفَ اللهُ بهِمَا نفْسَهُ.

(عليٌّ) بمَعْنَى: عَالٍ، لكِنَّه أبلَغُ؛ لأَنَّ (عَليًّا) عَلَى وزْنِ (فعِيل) صِفَةٌ مُشبَّهةٌ، والصِّفةُ المُشبَّهة تَدُلُّ عَلَى الثُّبوتِ والاستِمْرَارِ.

و﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ: ذُو حُكْمٍ وحِكمَة؛ فالقُرآنُ حَاكِمٌ، والقُرآنُ مُشتَمِلٌ عَلَى حِكْمةٍ. ومعْنَى قَولِنا: (حَاكِمٌ) أنَّه مَرجِعٌ فِي الحُكمِ لا يُحكَم بغَيرِه، ومعْنَى (حَاكِمٌ)

أَنَّه مُهيمِنٌ عَلَى جَمِيعِ الكُتُبِ حَاكِمٌ عَلَيْهَا.

وقولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ يَحتَمِل أنَّ مُرادَ ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أَيْ: ذِكْرُه كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، ومَعلُوم أنَّ القُرآنَ لَيسَ فِي زُبرِ الأَوَّلِينَ، ولكِنْ فِي زُبُرِ الأَوَّلينَ ذِكرُه، ولكِنْ إِذَا تَأَمَّلنا قُلْنا: الأَصْلُ أنَّ الضَّمِيرَ يَرجِعُ إِلَى المُضمَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، أَيْ: إِلَى نَفْسِ المُضمَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، وحينَئِذٍ يَكُونُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ -أَيِ: القُرآن- كُلُّه فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ.

فإِنْ قَالَ قَائلٌ: هَذَا القَولُ يَرِدُ عَلَيْهِ أَنَّ فِي القُرآنِ الكريم كلِماتٍ تَحدَّث اللهُ بِهَا عَنْ شَيْءٍ مَضَى، مِثْلَ قَولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١] هَذَا الخَبَرُ بعْدَ المُجادلَة، وقولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١] إِشَارةٌ إِلَى غزْوةِ أُحُدٍ ﴿غَدَوْتَ﴾ خرَجْتَ فِي الغدَاةِ، هَذَا الخَبرُ بعْدَ أَنْ غدَا؛ لأنَّ غدَا فِعلٌ مَاضٍ، فهُنَا يُشكِلُ يُقَالُ: كَيفَ كَانَ فِي اللَّوحِ المحفُوظِ يَتحدَّث اللهُ عَنْ شَيْءٍ حصَلَ قَبْلَ أَنْ تَنزِلَ الآيَة؟

فيُقَال: لَا إِشكَالَ؛ والجَوابُ: أَنَّ اللهَ كتَبَ هَذَا فِي اللَّوحِ المحفُوظِ؛ لعِلْمِه أَنَّه سيَقَعُ، ثُمَّ أَنزَلَهُ بعْدَ وُقُوعِهِ، كَمَا أَنَّ الحوادِثَ الكَونيَّةَ مَكتُوبَةٌ فِي اللَّوحِ المحفُوظِ لعِلْمِهِ تعَالَى أَنَّها ستَقَعُ، ثُمَّ تَكُونُ حِينَ يُرِيدُ اللهُ أَنْ تَكُونَ.

وكنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أُرجِّحُ، بَلْ أَقُولُ: يَتعيَّن أَنَّ الَّذِي فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ لَيسَ هُوَ القُرآنَ؛ لكِنَّ الَّذِي فِي اللَّوحِ ذِكْرُ القُرآنِ؛ أَيْ أَنَّه سيَنْزِلُ قُرآنًا عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ، واستَدَلُّوا عَلَى هَذَا بقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، والَّذِي فِي زُبُرِ الأَوَّلينَ هُوَ ذِكْرُ القُرآنِ بلَا شَكٍّ، مُستَنِدًا إِلَى مِثْلِ الآيَاتِ الَّتِي ذَكَرْتُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١] وقولُهُ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١].

حتَّى عثَرْتُ عَلَى كَلَامٍ لشَيخِ الإسلَامِ ابْنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبيَّن مَا ذكَرْتُ أخيرًا؛ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُكتَب فِي اللَّوحِ المحفُوظِ بلَفْظِ المَاضِي؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلِمَ أَنَّهُ سيكُون[1]، وأَنَّهُ سينْزِلُ هَذِهِ الْآيَةَ بعْدَ أَنْ يَكُونَ.

وبِنَاءً عَلَيْهِ: تَبيَّنَ لِي أَنَّ الَّذِي فِي اللَّوحِ المحفُوظِ القُرآنُ؛ بِنَاءً عَلَى ظَاهِرِ الآيَاتِ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١-٢٢] والحمْدُ لله الَّذِي فتحَ عَلَيَّ، وجَزَى اللهُ شَيخَ الإسلَامِ ابْنَ تيمِيَّةَ خَيْرًا، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإنسَانَ مَهْمَا كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَعتَرِيَه النَّقْصُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: عنَايَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بهَذَا القُرآنِ، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِهِ؛ حيْثُ جعَلَه عنْدَهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ القُرآنَ عَالٍ بَلْ عَلِيٌّ، وهَذَا يدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ تمَسَّكَ بهَذَا القُرآنِ فلَهُ العُلوُّ كقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥] فنَقُولُ: القُرآنُ عَلِيٌّ، ومَنْ تمَسَّكَ بِهِ فلَهُ العُلوُّ، وشَاهِدُ هَذَا الوَاقِعُ؛ لَمَّا كَانَتِ الأُمَّةُ الإِسلَامِيَّةُ مُتمسِّكةً بالإِسلَامِ كَانَ لَهَا العُلوُّ والظُّهورُ، وملَكَتْ بِهِ مشَارِقَ الأرْضِ ومغَارِبَها، ولَمَّا تقَاعَسَتْ وتخَاذَلَتْ وتَنَازَعَتْ وتبَاغضَتْ صَارَ الأَمْرُ بالعَكْسِ، صَارَ لَهَا الذُّلُّ، فالْآنَ أُمَّةُ العرَبِ يَدْعُون اليهودَ إِلَى السِّلْمِ، ويُكرِّرُون ذَلِكَ، ويَمُدُّونَ أيدَيهُمْ إِلَى دُولِ النَّصارَى لتُساعِدَهم عَلَى السِّلمِ؛ لأَنَّنَا لَمْ نَتَمَسَّكْ بالقُرآنِ،

(١) انظر: النبوات لابن تيمية (٢/ ٩١٣).

فكُنَّا أذِلَّةً نَتوسَّلُ لأعدَائِنَا أَنْ يقعَ السِّلمُ بينَنَا وبَيْنَ أعدَائِنَا.

فلَوْ قَالَ لنَا قَائِلٌ: نحنُ أُمَّةُ القُرآنِ ومَعَ ذَلِكَ فالنَّاسُ فِي ذُلٍّ!.

قُلْنَا: لأَنَّنـا لم نَتمَسَّكْ بالقُرآنِ، ولَوْ تَمَسَّكْنا بالقُرآنِ لضَمـنَّا لأنفُسِنَا العُلـوَّ والغلبَةَ والظُّهورَ، لكِنَّ الأمْرَ بالعكسِ، فالْآنَ غَالِبُ المُسلمِينَ يَلهَثُونَ وَرَاءَ الدُّنيَا، مُعرِضِينَ عَنِ الدِّينِ، يَسَأَلُونَ: مَا الَّذِي يُنمِّي الاقتصَادَ؟ ما الَّذِي يَصِلُ بِهِ إِلَى التَّرَفِ؟ ومَا أَشْبَه ذَلِكَ، لكِنْ مَا الَّذِي يُقوِّي الدِّينَ؟ هَذَا قَلِيلٌ أَوْ نَادِرٌ، هَذَا قَلِيلٌ أَوْ مَعدُوم.

إِذَنِ: الكلِمَةُ ﴿لَعَلِّيٓ﴾ عَلَى ظَاهِرِهَا وعَلَى معْنَاهَا، لكِنْ بشَرْطِ أَنْ نَتمَسَّكَ بهَذَا القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مَنْ جَادَلَ بالقُرآنِ فهُوَ غَالِبٌ؛ لأَنَّ الَّذِي لَهُ العُلوُّ هُوَ القُرآنُ، أيُّ إنسَانٍ يُناظِرُك ووسيلَةُ إقنَاعِهِ ودَحْرِه القُرآنُ فإنَّكَ ستَغْلِبُه بلا شَكٍّ، لكِنْ لَمَّا عَدَلَ كَثِيرٌ مِنَ الأُمَّة إِلَى كلَامِ أهْلِ الكلَامِ -الذِي لَا فائِدَةَ فِيهِ- لم يُهْدَوا إِلَى صِرَاطِ المُستَقِيمِ، ولَمْ يَغْلِبُوا الأعْدَاءَ، بَلْ تَسلَّطَ علَيهِمُ الأعدَاءُ.

حتَّى الفَلاسِفَةُ المُلحِدُون صَارُوا يَحتَجُّون بعَمَلِ الأشَاعِرَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ البَاطِلِ، ويَقُولُون: أنتُمْ أيُّها الأشَاعِرَةُ، أنتُمْ أيُّها المعتزِلَةُ، حرَّفْتُمُ النُّصوصَ إِلَى مَا تَرَوْنَهُ عقْـلًا، ونحْنُ أيضًا انْصرَفْنا عَنِ النُّصوصِ إِلَى مَا نَرَاهُ عقْـلًا، فاحتَجُّوا ببِدَعِ هَؤُلاءِ عَلَى إلحَادِهِمْ، وقَالُوا: نحْنُ وأَنْتُمْ سَوَاءٌ، أَنْتُم حَرَّفتُم ونحْنُ حرَّفْنا؛ ولكِنْ لَوْ تَمَسَّكْنا بالقُرآنِ لَا يَستَطِيعُ هَؤُلاءِ الفلَاسفَةُ أنْ يُجابِهُونا.

واقْرَأْ كُتُبَ أَهْلِ الكَلَام تَجِدْ صفحَةً صفحتَينِ لَا تَأْتِي منْهُما إِلَّا بفَائِدةٍ واحِدَةٍ؛ ولهَذَا صَحَّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُم أَهْلُ الكلَامِ وكلَامُهُم كَلَامٌ، بمَعْنَى أنَّ كلَامَهُم لَا فائِدَةَ

فِيهِ؛ وانْظُرْ إِلَى قَولِهِ ﷺ لَمَّا شَكَا إِلَيْهِ الصَّحابَةُ مَا يَجِدُونَ فِي نُفُوسِهم مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيطانِ قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»(١)، وأَمَرَ مَنْ يَجِدُ هَذِهِ الوسَاوسَ أَنْ يَستَعِيذَ باللهِ ويَنْتَهِيَ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»(٢) كَلِمَتَانِ. فيَكتُبُ الفَلَاسِفَةُ والمُتكلِّمُونَ عَلَى هَـذَا الكَثِيرَ مِمَّا يَدَّعُون أَنَّهُ عَقليَّاتُ، وهُوَ وَهمِيَّاتٌ.

نَسأَلُ اللهَ أَنْ يرزُقَنا وإِيَّاكُمُ التَّمسُّكَ بِهَذَا الكتَابِ العزِيزِ، وأَنْ يُعِزَّنا بِهِ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الآيــة (٥)

• • ◊ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:٥].

• • ◊ • •

الهَمزَةُ هُنَا للاستِفْهَامِ، المُرادُ بِهِ النَّفيُ؛ بدَلِيلِ أنَّ المُفسِّر قـدَّر بعْدَ ذَلِكَ قَوْلَهُ: لَنْ. يَعنِي: لَنْ نَضْرِبَ عنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا. المَعْنَى: أنَّنا لَا يُمكِنُ أَنْ نترُكَكُم بدُونِ إنْذَار؛ لكَونِكُم قومًا مُجرِمِينَ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الإنْذَارِ كَمَا تَقُولُ: ضَرَبْتُ عَنْ هَذَا صفْحًا؛ يَعنِي: أَعرَضْتُ عنْـهُ، ولَنْ تَرْفَعْ بِـهِ رَأسًا، والمُرادُ بهَذَا -كَمَا قُلْـتُ- النَّفْيُ؛ تَوبِيخًا لهَؤُلاءِ القَوْمِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عمَّا جَاءَ بِهِ النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

والضَّمِيرُ فِي قَولِهِ: (نَضْرِبُ) يَعُودُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَتَى بالضَّمِيرِ الدَّالِّ عَلَى الجَمْعِ تَعظِيمًا للهِ تعَالَى، ولَيْسَ للتَّعدُّدِ؛ لأَنَّ اللهَ الوَاحِدَ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وقَولُهُ: ﴿عَنكُمُ﴾ يَعُودُ إِلَى كُفَّارِ قُريشٍ الَّذِين كَذَّبُوا مُحمَّدًا ﷺ.

وقَولُهُ: ﴿صَفْحًا﴾ مَصدَرٌ مَعنَوِيٌّ لكلِمَةِ (نَضرِبُ)؛ لأَنَّ معنَاهُ (إعْرَاضًا).

فمَعْنَى الآيةِ إجْمَالًا: أَنُعرِضُ عَنْ تَذْكِيرِكُم وإنذَارِكُم. وهَذَا هُو الَّذِي يَفعَلُهُ العَرَبُ فِي كَلَامِهِمْ؛ يَقُولُ: أَعْرَضْتُ عنْكَ صفْحًا يَعْنِي: لَمْ أُبالِ بِكَ ولَمْ أَلتَفِتْ إِلَيْكَ.

وقَولُهُ: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾: ﴿أَن﴾ ومَا دخَلَتْ علَيْهِ فِي تَأوِيلِ

مَصْدَرٍ مَفعُولٍ لأَجْلِهِ؛ أيْ: لأَجْلِ أَنْ كُنْتُم قَوْمًا مُسرِفِينَ، فهِيَ تعلِيلِيَّةٌ. والإسْرَافُ مُجاوَزَةُ الحَدِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اللهَ لَمْ يَتْرُكْ عِبادَهُ هَمَلًا، بَلْ بيَّنَ لَهُمُ الحقَّ، ودَعَاهُم إلَيْهِ، وخَوَّفَهم مِنْ مُخالفَتِهِ فلَمْ يَبْقَ لأَحدٍ عُذْرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسَانَ مَعذُورٌ بالجَهْلِ إذَا لَمْ تَبلغْهُ الرِّسالَةُ، وهَذَا لَهُ أدِلَّةٌ:

مِنْهَا: قَوْلُ اللهِ تعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

ومنْهَا: قَولُهُ تعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥].

ومنْهَا: قَولُهُ تعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، والأدِلَّةُ علَى هَذَا كثيرَةٌ.

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1]، فقَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«لَا يَسْمَعْ بِي أَحَدٌ».

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ يُشتَرَطُ مَعَ بُلُوغِ الرِّسالَةِ أَنْ يَفْهَمَها المُخَاطَبُ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، يُشتَرَطُ هَذَا؛ لقَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم:٤]، أيُّ فَائدَةٍ فِي رَسُولٍ يَأتِي إِلَى قَوْمٍ لَا يَعرِفُونَ لُغتَهُ وَهُو لَا يَعرِفُ لُغتَهُم؟! لَا فائِدَةَ تَحصُلُ، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أرْحَمُ وأحْكَمُ مِنْ أَنْ يُعذِّبَ قَوْمًا بدُونِ أَنْ يَفهَمُوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسلُ.

يَبقَى النَّظَرُ إِذَا كَانَ الإنسَانُ مُسلِمًا ولكنَّهُ يَقُومُ بأَعْمالٍ شِرْكيَّةٍ لَا يُظَنُّ أنَّها شِرْكٌ، فهَلْ يُحكَمُ بشِرْكِهِ؟

فالجَوابُ: لَا، حتَّى تَقُومَ علَيْهِ الحُجَّةُ، فإِذَا قَامتْ علَيْهِ الحُجَّةُ، فحِينَئِذٍ نَحْكُمُ بشِرْكِهِ.

فإِنْ قِيلَ: وكذَلِكَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ البِدَعَ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، لكِنَّ المُبتَدِعَ أشَدُّ؛ لأَنَّ المُبتَدِعَ -والعِيَاذُ باللهِ- يَضِلُّ بِهِ أَنَاسٌ كثِيرُونَ، والشِّركُ لَا يَضرُّ إِلَّا صَاحبَهُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا المُشرِكُ لَهُ طَاعَةٌ عِنْدَ قَومِهِ، ويكُونَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ يَتَّبِعُونَه، فهُوَ مِنْ جِنْسِ المُبتَدِعِ، أمَّا إِذَا كَانَ عامِّيًّا فإِنَّه لَا يُؤثِّرُ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ؛ ولهَذَا قَالَ بَعْضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُاللَّهُ: المُبتَدِعُ لَا تَوْبَةَ لَهُ؛ لأَنَّهُ وإِنْ تَابَ بنَفْسِهِ لَا يَسْلَمُ مِنْ ضَلَالَةِ الَّذِين اتَّبعُوهُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مِنَ المُشرِكِينَ أَتَاهُ رَجُلٌ مُسلِمٌ لكِنَّهُ صُوفيٌّ فأَعْطَاهُ الإسْلَامَ عَلَى وَجهِ الصُّوفيَّة والأذْكَارِ المُبتَدَعَةِ، فصَارَ يَعْمَلُ بهَذَا ويَعتَقِدُ أنَّ هَذَا هُوَ الإِسْلَامُ، هَلْ يُعاقَبُ عَلَيْهِ؟

فالجَوابُ: لَا يُمكِنُ أَنْ يُعذَّبَ أحَدٌ عَلَى بَاطِلٍ إلَّا إِذَا كَانَ يَعلَمُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أَرحَمُ وأَحكَمُ مِنْ أَنْ يُعذِّبَ شَخْصًا وهُوَ لَا يَدْرِي، ولكِنْ هناك أُناسٌ مُعَانِدُون يُذكَر لهُمُ الحَقُّ ويَقُولُ: لَا، أَنَا أَتَّبِعُ شَيخِي. حتَّى لَوْ كَانَ الَّذِي ذَكَرَ لَهُ الحَقَّ عَالِمًا مَعرُوفًا يقُولُ: لَا، أَتَّبِعُ مَشَايِخِي. فهَذَا لَا يُعذَرُ، لكِنْ لَوْ أَنَّ عَامِّيًّا أُعلِّمُه أنَّ هَذَا العمَلَ لَا يَجُوزُ وهَـذَا شِرْكٌ، ومشَايِخُهُ كُلُّهُم يَقُولُونَ: هَذَا حسَنٌ. فهُوَ مَعذُورٌ؛ لأَنَّهُ لَا يَثِقُ، فلَمْ يَأتِ لَهُ الحَقُّ عَلَى وَجْهٍ يَثِقُ بِهِ، فالْآنَ نَحْنُ العُلَماءَ لَوْ جَاءَنَا إِنسَانٌ عَلَى عَكْسِ مَا جَاءَ بِهِ عُلَمَاؤُنَا ونحْنُ لَا نَعرِفُهُ مَا اتَّبعنَاهُ، لكِنْ قَدْ يُقَال: كَونُهُ أُعلِمَ بأنَّه عَلَى باطِلٍ وأنَّ الحَقَّ خلَافُهُ يُلزِمُه بأَنْ يَبحَثَ ويَسْأَلَ، فَقَدْ يُؤَاخَذُ مِنْ هُنَا، أَيْ: مِنَ التَّقصِيرِ فِي طلَبِ الحَقِّ.

وإِذَا قَالَ قَائِلٌ: رَجُلٌ فِي الغَابَاتِ بَعِيدٌ عَنِ المُدُنِ، بَعِيدٌ عَنِ الحَضَارَاتِ، لكِنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى دِينِ كُفْرٍ، فهَلْ هَذَا مَعْذُورٌ؟

فالجَوابُ: أمَّا فِي أحْكَامِ الدُّنيَا فلَيْسَ بمَعذُورٍ. يَعْنِي: أَنَّنا نُعامِلُه مُعاملَةَ الكَافِرِ؛ لأَنَّه لَا يَنتَمِي إِلَى دِينِ الإسْلَامِ، بخِلَافِ الأوَّلِ، نُعامِلُه فِي الدُّنيا مُعامَلَةَ الكَافِرِ، أمَّا فِي الآخِرَةِ فأَمْرُهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا نَدرِي مَاذَا يَكُونُ، وقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**أَنَّ أَهْلَ الْفَتْرَةِ يُرْسِلُ اللهُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَمْتَحِنُهُمْ مَنْ أَطَاعَ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَى دَخَلَ النَّارَ**»[1].

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى هَذَا القَوْلِ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ الآخِرَةُ دَارَ تكلِيفٍ؟

فالجَوابُ: نعَمْ، نَلتزِمُ بهَذَا، وقَدْ دَلَّ القُرآنُ عَلَى أَنَّ الآخِرَةَ دَارُ تكلِيفٍ؛ فقَالَ

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد (٤/ ٢٤)، من حديث الأسود بن سريع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٢-٤٣] فهُنَا كُلِّفُوا بالسُّجودِ مَعَ أَنَّ الآخِرَةَ ليْسَتْ دَارَ تكْلِيفٍ فِي الأَصْلِ، لكِنْ قَدْ يُكلَّفُ النَّاسُ فِيهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أحكَامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُعلَّلَةٌ بعِلَلٍ مُناسبَةٍ للحُكْمِ، وهَذَا مِنْ مُقتضَى حِكْمتِهِ؛ أَلَّا تَجِدَ حُكْمًا إِلَّا ولَهُ حِكْمَةٌ، ولكِنْ هَلْ يَلْزَمُ مِنْ كَونِهِ لَهُ حِكْمَةٌ أَنْ تَكُونَ معلُومةً لَنَا؟

الجَوابُ: لَا؛ لأَنَّ أفهَامَنَا وعُقُولَنَا أدْنَى مِنْ أَنْ تُحِيطَ عِلْمًا باللهِ، بحِكمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّنا نَعلَمُ أَنَّهُ لَا يُحكَمُ بشَيءٍ قَدَرًا أَوْ شَرْعًا إِلَّا ولَهُ حِكْمَةٌ، إِذَا حَكَمَ اللهُ فِي الكِتَابِ أَوِ السُّنَّة بحُكْمٍ فَلَا تَبْغِ بِهِ بَدِيلًا؛ لقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، ولَمَّا سُئِلَتْ أُمُّ المُؤمِنِينَ عائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عَنِ الحَائِضِ تَقْضِي الصَّومَ دُونَ الصَّلاةِ؟ قَالَتْ: «كَانَ يُصيبُنا ذَلِكَ فنُؤمَرُ بقَضَاءِ الصَّومِ ولَا نُؤْمَرُ بقَضَاءِ الصَّلاةِ»(١).



(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

الآيــة (٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:٦].

(كَمْ) هذِهِ خبَرِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الكثرَةِ، عامِلُها مَا بعدَهَا ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، والإِرْسَالُ هُوَ الإيحَاءُ إِلَى بَشَر بشَريعَةٍ ويُؤمَرُ بتَبْلِيغِهَا.

وقولُهُ: ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ بيَانٌ لِـ(كَمْ) والمُرادُ هُنَا الرَّسُولُ؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ﴾ والنَّبيُّ يُطْلَقُ عَلَى الرَّسُولِ كثيرًا في القُرآنِ الكرِيمِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٤١] وأمثَالُ ذَلِكَ، والمُرادُ: الرَّسُولُ.

﴿فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أَيِ: السَّابِقِينَ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ.

الآيــة (٧)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزخرف:٧].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَمَا ﴾ كَانَ ﴿يَأْتِيهِم﴾] قدَّر المُفَسِّر (كَانَ)؛ لأَنَّ الأَمْرَ قَدْ مَضَى، ولَوْ كَانَ عَلَى نَسَقِ الكَلَامِ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم﴾ لكَانَ هَذَا فِي المُستقبَلِ؛ لذَلِكَ قدَّر المُفسِّر (كان) وهَذَا يَدُلُّ عَلَى عُمْقِ عِلْمِ المُفسِّرِ.

ولكِنْ خيرٌ مِنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: لَا حَاجَةَ إِلَى التَّقدِيرِ؛ لأَنَّهُ إِذَا دَارَ الأَمْرُ بَيْنَ أَنْ يكُونَ فِي الكلَامِ مُقـدَّرٌ أَوْ لَا يكُونُ مُقدَّرٌ، فالأصْلُ عدمُ التَّقدِيرِ، فنَقُول: الْآيَةُ بَاقيَةٌ عَلَى ظَاهِرِهَا، لكِنَّها عَلَى حِكَايَةِ الحَالِ؛ يَعْنِي: كَأَنَّ المَاضِيَ حَاضِرٌ الْآنَ، وهَذَا أبلَغُ فِي تخْويفِ قُريشٍ مِنَ المُخالفَةِ.

فالمُفَسِّر قدَّر (كان)؛ لأَنَّ القُرآنَ يَتحدَّثُ عَنْ شَيْءٍ مَضَى، فلَا بُدَّ أَنْ يُقدِّر فعْلًا مَاضِيًا، ونحْنُ نقُولُ: لَا حَاجَةَ إِلَى التَّقدِيرِ، وجاءَتِ الْآيَة في سِيَاقِ الفِعْلِ المُضارِعِ الدَّالِّ عَلَى الاستِقْبَالِ حكَايَةً للحَالِ، كأَنَّ الأَمْرَ وَاقِعٌ الْآنَ، فيَكُونُ هَذَا أَبْلَغَ فِي إِنْذَارِ قُريشٍ وتَحذِيرِهِمْ.

وقولُهُ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾: ﴿مِّن﴾ هذِهِ زَائِدَةٌ إعْرَابًا، لكِنَّهَا مُفِيدَةٌ للمَعْنَى، زائِدَةٌ إعْرابًا بمَعْنَى: أَنَّها لَوْ نُزِعتْ مِنَ السِّيَاقِ لتَمَّ بدُونِها، لَوْ كَانَ لَفظُ الْآيَة الكرِيمَةِ (ومَا يَأْتيهِمْ نَبِيٌّ) يَستَقِيمُ الكلَامُ، ولكِنْ جاءَتْ (مِنْ) زِيادَةً فِي الفَائِدَةِ، وهِيَ كَمَا

يقُولُ عُلماءُ البلَاغَةِ وعُلماءُ النَّحْوِ: إنَّ زِيادَةَ الكلِمَةِ -يعْنِي: الحَرْفَ فِي الجُملَةِ- تدُلُّ عَلَى التَّوكيدِ، يعْنِي: كُلُّ كلمَةٍ زَائدَةٍ فِي القُرآنِ مِنْ حَيْثُ الإعْرَابُ فهِيَ مُفيدَةٌ للمَعْنَى.

وقولُهُ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ لَا يقبَلُون ولَا يسكُتُون، بَلْ يَستَهزِئُونَ، والاستِهزَاءُ: السُّخريةُ؛ بمَعْنَى: أنَّهُم يَسخَرُون بِهِمْ ويَحتَقِرُونهُم؛ ليُحذِّرُوا النَّاسَ منْهُم، فانْظُرْ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَيْفَ يُرْسِلُ الرُّسُلَ وهُوَ يَعلَمُ أنَّ هؤُلاءِ المَدعُوِّين سيُقَابِلُونهُمْ بالاستِهْزَاءِ، ولكِنْ إقَامَةً للحُجَّةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اللهَ تعالى أَرْسَلَ عَدَدًا كثِيرًا مِنَ الأنْبياءِ فِي السَّابِقِينَ، وقَدْ جاءَ فِي بَعْضِ الأحَادِيثِ أنَّهُم مِئَةٌ وأربعَةٌ وعِشرُونَ ألفًا، فاللهُ أَعلَمُ؛ لأَنَّ هَذَا يَحتاجُ إِلَى دَلِيلٍ صَحِيحٍ صَرِيحٍ، وقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، ومعْلُومٌ أنَّ مَنْ لَمْ يُقْصَصْ علَيْنا فلَنْ نَستَطِيعَ أَنْ نَعرِفَ عددَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ تعَالَى أَقَامَ الحُجَّةَ عَلَى جَمِيعِ الخَلْقِ، ويُؤيِّدُ هَذَا قَولُهُ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَسلِيةُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ إِذَا عَلِمَ أنَّ الرُّسلَ مِنْ قَبْلِهِ يُستَهْزَأُ بِهِمْ فإِنَّهُ يَتَسلَّى ولَا شَكَّ.

واعْرِفْ أنْتَ هَذَا مِنْ نفسِكَ؛ فإِذَا أُصِبْتَ بمُصيبَةٍ وأُصِيبَ غيرُك بمِثْلِهَا أَوْ أشَدَّ، أَلَسْتَ تَتَسلَّى بهَذَا وتَهُونُ عَلَيْكَ المُصيبَةُ؟ بلَى، وفِي هَذَا يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩]، يَعْنِي: أَنَّ اشتِرَاكَهُم فِي العَذَابِ لَا يُخفِّفُ العذَابَ عَنْهُمْ، ولَا يَحصُلُ لكُمْ بِهِ تَسلٍّ؛ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ -أَعَاذَنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ مِنْهَا- لَا يَرى أَنَّ أحدًا منْهُمْ أخفُّ عذابًا؛ ولذَلِكَ يَشتَدُّ حُزنُهم -والعِياذُ باللهِ- إذَا رَأَى أَنَّهُ هُوَ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا وهُوَ أَهْوَنُهُمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الاستِهزَاءَ بالرُّسلِ تَكذِيبٌ لَهُمْ وزِيادَةٌ؛ لقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ واعلَمْ أنَّ الاستِهْزَاءَ بالرُّسلِ كُفْرٌ، والاستِهْزَاءَ بالكُتُبِ كُفْرٌ، والاستِهزِاءَ باللهِ كُفْرٌ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

واختَلَفَ العُلَماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ فيمَنِ استَهْزَأَ باللهِ أَوْ آيَاتِهِ أَوْ رَسُولِهِ، أَوْ سَبَّ اللهَ أَوْ كتَابَهُ أَوْ رَسُولَهُ، هَلْ تُقبلُ توبتُهُ أَوْ لَا تُقْبَلُ؟ عَلَى قَوْلَينِ، والصَّحِيحُ التَّفصِيلُ فِي هَذَا، وهُوَ أَنَّهُ إِنْ وُجِدَ مَا يَدُلُّ عَلَى استِقَامَتِهِ وَصِحَّةِ تَوبتِهِ فإِنَّها تُقبَلُ، وإِلَّا فَلَا، وذَلِكَ لأَنَّ هَذَا المُستَهزِئَ أَوِ السَّاحِرَ أَوِ السَّابَّ ثَلَاثَ حَالَاتٍ:

الحَالُ الأُولَى: أَنْ يَستَمِرَّ فِي ذَلِكَ، فهَذَا لَا تَوبَةَ لَهُ، ويُقتَلُ رِدَّةً.

الحَالُ الثَّانِيَةُ: أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ تَابَ تَوبَةً نَصوحَةً؛ لأَنَّه استَقَامَ وصَلَحَتْ حَالُهُ، فهَذَا تُقبَلُ توبتُهُ بِلَا إِشْكَالٍ.

الحَالُ الثَّالثَةُ: أَنْ نَتَرَدَّدَ هَلْ هُوَ صَادِقٌ فِي تَوْبَتِهِ أَوْ غَيْرُ صَادِقٍ. فهَذَا يُقْتَلُ، ويَكُونُ أَمْرُهُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ نَقتُلُه لظَاهِرِ حَالِهِ؛ لأَنَّنا لَمْ نَتيَقَّنْ أَنَّ هَذِهِ الحَالَ قَدْ تغيَّرَتْ إِلَى مَا يَمْنَعُ قتْلَهُ، فنَقتُلُه، أَمَّا فِي الآخِرَةِ فأَمْرُهُ إِلَى اللهِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ الاستِهزَاءُ باللهِ وسَبُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ذَنْبًا عظِيمًا لَا يُحتَمَلُ أَنْ تُقبَلَ توبَةُ فَاعلِهِ؟

فالجَوابُ: أَنْ نَقرَأَ قَوْلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي نَفْسِ الْآيَة المذكُورة: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ [التوبة:٦٥] يَعْنِي: إِذَا عفَوْنا عَنْ طَائفةٍ بتَوبتَهِمْ عذَّبْنا الطَّائفَةَ الأُخْرَى الَّتِي لَمْ تَتُبْ، واقْرَأْ قَوْلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

مَسْأَلةٌ: هَلْ تُقبَلُ توبَةُ الْمُرتَدِّ؟

الجَوابُ: الصَّحيحُ أَنَّها تُقبَل إِذَا قَامَ الدَّليلُ عَلَى أَنَّهُ صَادِقٌ، أَمَّا إِذَا كَانَ يَلعَبُ بِنَا فيَقُولُ: إِنَّه تَائِبٌ وهُوَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فَلَا، ويُقتَلُ مَا لَمْ نَعْلَمْ أَنَّهُ تَائِبٌ.

مَسْأَلةٌ: مَا حُكْمُ الْمُستهْزِئِ بأَهْلِ الدِّينِ؟

فالجَوابُ: الَّذِي يَستَهْزِئُ بأَهْلِ الدِّينِ إِذَا استَهْزَأَ بِهِمْ لدِينِهِمْ فهُوَ مُستهزِئٌ بالدِّين، وإِنِ استهزَأَ بِهِمْ لشَكلِهِم فَلَا، ولذَلِكَ الْآنَ لَوْ وَجَدْنا أَحدًا رَفع ثَوبَهُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ مِنَ العُلماءِ الْمُعتبَرِينَ الْمُطاعِينَ لَا تَجِدُ أَحدًا يَستهزِئُ بِهِمْ، لكِنْ لَوْ جَاءَ إِنسَانٌ عَاميٌّ استهْزَؤُوا بِهِ، وهُنَا نَقُولُ: إِنَّ الاستِهْزَاءَ هُنَا لَيْسَ استِهْزَاءً للدِّينِ، وإِنَّما هُوَ استِهْزَاءٌ بهَذَا الرَّجُلِ، فيَجِبُ التَّفرِيقُ بَيْنَ هَذَا وهَذَا.



الآيــة (٨)

• • • •

ﵟ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:٨].

• • • •

(أَهْلَكْنا) يَعْنِي بالمَوْتِ، ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم﴾ أَيْ: مِنْ كُفَّارِ قُرِيشٍ، ﴿بَطۡشٗا﴾ أَيْ: [قُوَّةً] ﴿وَمَضَىٰ﴾ أَيْ: [سَبَقَ فِي آيَات] ﴿مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ يَعْنِي: قُوَّةً، كقَوْمِ هُودٍ، وقَوْمِ صَالِحٍ، ومَنْ أَشْبَهَهُم، أَهلَكَهُمُ اللهُ وهُمْ أَشَدُّ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذِين كذَّبُوا مُحَمَّدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أَشَدُّ بَطْشًا، وأَكْثَرُ أَمْوَالًا وأَوْلَادًا، ومَعَ ذَلِكَ مَا أَغْنَتْ عنْهُم شَيْئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيَانُ شِدَّةِ صَبْرِ الرُّسلِ علَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ حَيْثُ إنَّهُم يُستَهْزَأُ بِهِمْ، وهُمْ صَابِرُون حتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وإلَّا فمَنِ الَّذِي يُطِيقُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ وهُمْ يَستَهزِئُون بِهِ، لَوْلَا أَنْ يُثَبِّتَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الإنسَانَ بالقَوْلِ الثَّابتِ، كَمَا قَالَ تعَالَى لنَبيِّهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ [الإسراء:٧٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحذِيرُ قُريشٍ مِنْ رَدِّ دَعوَةِ النَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ؛ لأَنَّ اللهَ تعَالَى تَوعَّدَهم بذِكْرِ إِهْلَاكِ مَنْ سَبَقَ، وكُلُّ إنسَانٍ لَهُ قَلْبٌ إِذَا ذُكِرَ لَهُ حَالُ الأُمَمِ

السَّابقَةِ، وأَنَّهُم أُهلِكُوا فلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَتَّعِظَ ولَا بُدَّ أَنْ يَخَافَ ويَخْشَى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَوازُ التَّحويلِ عَلَى شَيْءٍ سَابقٍ؛ لقَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: حَـالُهُم وصِفَاتُهُم، والتَّحـوِيلُ فِيهِ فائِدَةٌ، وهِيَ: أَنْ يَتـذَكَّرَ الإنسَانُ مَا مَضَى وأَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ.

وقَدْ عَابَ قَوْمٌ عَلَى الحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكَثْرَةِ حِوالَاتِهِ فِي (فَتْح البَارِي) والحقِيـقَةُ أَنْ لَا عَيْبَ، ولَا يَرِدُ عَلَى هَذَا أَنَّهُ قَد يُحِيـلُ أحْيَانًا ولَا نَجِدُ مَا أَحَالَ بِـهِ، فأَحْيَانًا يَقُولُ: يَأتِي فِي بَابِ كَذَا وَلَا نَجِدُهُ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَعـذُورًا بالنِّسيَانِ، أَوْ أَلحَقَهُ بنُسخَةٍ لَمْ تَصِلْ إِلَيْنَا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

المُهِمُّ: فائِدَةُ الإِحَالَاتِ تذْكِيرُ الإنسَانِ مَا سَبَقَ، واهتِمَامُهُ بالكِتَابِ، ورَوَاجُ الكتَابِ كُلِّهِ؛ لأَنَّه إِذَا كَانَ هُنَاكَ إحَالَاتٌ فلَازِمُ هَذَا أَنْ يكُونَ عندَكَ كُلُّ الكِتَابِ، لأَنَّهُ سَيُحالُ عَلَيْهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَك.



الآيــة (٩)

• • ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

• • ● ● •

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الخِطَابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الجُمْلَةُ هَذِهِ فِيهَا شَرْطٌ وفِيهَا قَسَمٌ، فِيهَا شَرْطٌ ﴿وَلَئِن﴾، وفِيهَا قَسَمٌ دَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّامُ؛ لأنَّ اللَّامَ مُوطِئة للقَسَمِ، والقسَمُ يَحتاجُ إِلَى جَوابٍ، والشَّرطُ يَحتاجُ إِلَى جوَابٍ، فالقَسَمُ يَحتاجُ إِلَى جَوابٍ وهُوَ ذِكْرُ الْمُقسَمِ عَلَيْهِ، والشَّرطُ يَحتاجُ إِلَى جَوابٍ وهُوَ جَوابُ الشَّرطِ، فإِذَا اجْتَمَعَا مَاذَا نُقدِّمُ؟

الجوابُ: يقُولُ ابْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الأَلْفِيَّة:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ[1]

الْآيَةُ الكرِيمَةُ الَّتِي معَنَا الْمُؤخَّرُ هُوَ الشَّرطُ، إِذَنِ: احْذِفْ جَوَابَ الشَّرطِ واكْتَفِ بجَوابِ القسَمِ عَنْهُ؛ ولذَلِكَ نَجِدُ أنَّ الْآيَةَ قُرِنَ بالجَوابِ اللَّامُ، وهِيَ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ولَوْ كَانَ هَذَا جوَابًا للشَّرطِ لَمْ نَحتَجْ إِلَى اللَّامِ.

وقولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفعِ

---

(١) الألفية (ص:٥٩).

لتَوالِي النُّوناتِ ووَاوِ الضَّمِيرِ؛ لالْتِقَاءِ السَّاكِنَينِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أَصْلُها قَبْلَ الحَذْفِ (لَيَقُولُونَنَّ) عِنْدَنا ثلاثُ نُوناتٍ، احْذِفِ النُّونَ الأُولَى؛ لأَنَّ حَذْفَها مُعتَادٌ، أَيْ: حذْفُ نُونِ الرَّفعِ مِنَ المُضارِعِ كَثِيرٌ، ولأَنَّ نُونَ التَّوكِيدِ جاءَتْ لغَرَضٍ لَوْ حَذَفْنَاهَا لفَاتَ الغَرَضُ، وهُوَ التَّوكِيدُ، إِذَنْ: فنَحذِفُ نُونَ الرَّفْعِ، وهِيَ النُّونُ الأُولَى؛ لتَوالِي النُّوناتِ، ثُمَّ يَأتِي دَورُ الضَّمِيرِ (لَيَقُولُونَّ) الوَاوُ حَذَفناهَا لالتِقَاءِ السَّاكِنَينِ، السَّاكِنَانِ هُمَا: الوَاوُ السَّاكِنَةُ، والنُّونُ المُشدَّدةُ الحَرْفُ الأَوَّلُ مِنْهَا سَاكِنٌ، فتُحذَفُ الوَاوُ.

هَذَا التَّعلِيلُ هُوَ مِنَ النَّحويِّينَ لَا شَكَّ، وإِلَّا فالرَّجُل العَرَبِيُّ حِينَما يَتكَلَّمُ بِهَذِهِ الكلِماتِ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ أَنَّهُ حذَفَ نُونَ الرَّفْعِ وحذَفَ وَاوَ الضَّمِيرِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. لكنَّ عُلماءَ النَّحوِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَلتَمِسُونَ التَّوجيهَاتِ لكَلَامِ العَرَبِ، فوَجَدُوا هَذَا التَّوجيهَ، ولَوْ قُلْتَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ؟ ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ انظُرِ الجوابُ -وهُو جَوَابٌ صَحِيح مِئَةٌ بالمِئَةِ-: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ أَيِ: السَّمواتِ والأَرْضَ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقَولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ذُو العِزَّةِ، والعِزَّةُ أبرزُ معَانِيهَا الغلَبَةُ، يُقَال: عَزَّ فُلَانٌ فغَلَبَ. ولَهَا مَعْنًى آخَرُ وهُوَ: القَدْرُ، يَعْنِي: الشَّرَفُ والرِّفْعَةُ. ولَهَا مَعْنًى ثَالِثٌ وهُوَ: الشِّدَّةُ والصَّلابَةُ؛ ومِنْهَا قَولُهُمْ: أَرْضٌ عَزَازٌ؛ أَيْ: شَدِيدةٌ صُلبَةٌ.

وإِذَا أَرَدْنا أَنْ نُطبِّقَ هَذِهِ المَعَانِيَ عَلَى الوَصْفِ الَّذِي اتَّصَفَ اللهُ بِهِ مِنَ العِزَّةِ، فنَقُول: عزِيزٌ مِنَ العِزِّ وهُوَ الغلَبَةُ، وعزِيزٌ مِنْ عِزَّةِ القَدْرِ، ومعلُومٌ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أعظَمُ قَدْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وعزِيزٌ مِنْ عِزَّة الشِّدَّةِ والصَّلابةِ والامتِنَاعِ؛ وذَلِكَ أَنَّ اللهَ تعَالَى مُمتنِعٌ أَنْ يَتَّصِفَ بأَيِّ سُوءٍ وأَيِّ عَيْبٍ.

وقَولُه: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أَيْ: ذُو العِلْمِ التَّامِّ.

وتَأمَّل كَيْفَ جاؤُوا بهَذِهِ العِبارَةِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إشَارَةً إِلَى أَنَّهُم مُوقِنُون بأَنَّهُم أَذِلَّاءُ أَمامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمواتِ والأَرْضِ فإنَّهُ صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ، قالُوا: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهَذَا الإقْرَارُ يُلزِمُهُم أَنْ يُقِرُّوا بأَنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لكِنَّهُم لَمْ يَفْعَلُوا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِيها دَلِيلٌ عَلَى أنَّ الْمُشرِكِينَ يُقِرُّون بتَوحِيدِ الرُّبوبيَّةِ لقَوْلِهِمْ في الجَوابِ: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والأمْرُ كذَلِكَ، وإقرارُهم بتَوحِيدِ الرُّبوبيَّةِ يُلزِمُهُم أَنْ يُقِرُّوا بتَوحِيدِ الأُلوهيَّةِ، فيُقَال: إِذَا أَقْرَرْتُمْ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ فأَقِرُّوا أَنَّهُ لَا مَعبُودَ حقًّا إِلَّا اللهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للسَّمواتِ عَدَدًا؛ لقَولِهِ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقَدْ جَاءَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وفِي السُّنَّةِ النَّبوِيَّةِ أنَّ عدَدَ السَّمواتِ سَبْعٌ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق:١٢].

أَمَّا الأَرْضُ فلَمْ يَأتِ فِي القُرآنِ تصْرِيحٌ بأَنَّها سَبْعٌ، لكِنَّ ظَاهِرَ القُرآنِ كذَلِكَ، مِثْلَ قَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإنَّ المُوازَنَةَ هُنَا لَا يُمكِنُ أَنْ تكُونَ بالحَجْمِ ولَا بالقُوَّةِ؛ لأَنَّ السَّمواتِ أَوْسَعُ وأَعْظَمُ مِنَ الأَرْضِ وأقْوَى، فلَمْ يَبْقَ إِلَّا العَدَدُ، وقَدْ جاءَتِ السُّنَّة صريحَةً في ذَلِكَ، فقَالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١)، والسَّمواتُ طِبَاقٌ، واحِدةٌ فَوْقَ الأُخرَى، وإذَا كَانَ واحِدةٌ فَوْقَ الأُخرَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لَزِمَ أَنْ تَكُونَ السَّماءُ الثَّانيـةُ أَوْسَعَ مِنَ الأُولَى؛ لأَنَّها دَائِرَةٌ، والثَّالِثَـةُ: أَوْسَعُ مِنَ الثَّانيَةِ، وهَلُمَّ جرًّا.

ولهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] كُلَّما ارتَفَعت فِي السَّمواتِ اتَّسعَتِ السَّمواتُ، وهِيَ طِبَاقٌ بلَا شَكٍّ كَما فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وكَما جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي حَدِيثِ النُّعمَانِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أَمَّا الأرْضُ فهِيَ طِبَاقٌ أَيْضًا بدَلِيلِ أَنَّ مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأرْضِ الَّتِي نحْنُ عَلَيْهَا طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ، ولَوْلَا أَنَّ الأَرْضَ الثَّانيةَ تَحْتُ، والثَّالِثَةَ تَحتَهَا، وهكَذَا لَمْ يُطوَّقِ الإنسَانُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ؛ لأَنَّهُ ما غَصَبَ إلَّا ظَاهِرَ الأرْضِ، فتَكُونُ الأَرَضُونَ طِبَاقًا.

أَمَّا كَيْفَ هَذِهِ الطِّبَاقُ، فإِلَى الْآنَ لَمْ نَصِلْ إِلَى عِلْمٍ بِهَا، وعُلَماءُ الجُيولُوجيا الَّذِين يَحْفرُون أعمَاقِ الأرْضِ لَا يَطَّلِعُون عَلَى هَذَا، فهُوَ مجْهُولٌ لَنا، لكِنَّ الحدِيثَ: «طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» يَدُلُّ عَلَى أَنَّها طِبَاقٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْبَاتُ هَذَينِ الاسمَينِ لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وَهُمَا ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ واعلَمْ أخِي أنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ فهُوَ مُتضمِّنٌ لصِفَةٍ، فالعَزِيزُ مُتضمِّنٌ لصِفَةِ العِزَّةِ، والعَلِيـمُ مُتضمِّنٌ لصِفَةِ العِلْمِ، ولَيْسَ كُلُّ صِفَةٍ يُشتَقُّ مِنْـهَا اسْمٌ؛ ولهَذَا نَقُولُ: إنَّ بَابَ الصِّفَاتِ أوسَعُ مِنْ بَابِ الأَسْماءِ؛ لأَنَّهُ يُوجَدُ صِفَاتٌ لَيْسَ لله مِنْهَا أسماءٌ، لكِنْ لَا يُوجَدُ اسْمٌ إِلَّا ومِنْهُ صِفَةٌ، واللهُ أَعلَمُ.



الآيـة (١٠)

• • ● • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:١٠].

• • ● • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طُرُقًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾].

قَـولُهُ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ﴾ هَذَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الَّذِين سَأَلُوا النَّبيَّ ﷺ. وقَـد انْتَهَى كَلامُهُم عنْدَ قَولِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، أمَّا ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ فهَذَا مِنْ كَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَعْـنَى ﴿جَعَلَ﴾ صَيَّر، ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أَيْ: كالمَهْدِ، مُوطَّأَةً قَرَارًا يَطمَئِنُّ بِهَا الإنْسَانُ.

وقَوْلُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أَيْ: صيَّر لكُمْ فِيهَا سُبُلًا، أَيْ: طُرُقًا، هَذِهِ الطُّرُقُ تَكُونُ بَيْنَ الشِّعابِ والجِبَالِ والوِهَادِ، حتَّى إنَّه لتَأتِي الرِّياحُ الشَّديدَةُ وتَبْقَى هَذِهِ الطُّرُقُ مَعْلُومةً، يُستدَلُّ عَلَى هَذِهِ الطُّرُقِ بالجِبَالِ والشِّعَابِ والنُّجُومِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

وقَوْله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾: (لعَلَّ) هُنَا للتَّعلِيلِ، ومِنَ المَعلُومِ أنَّ (لعَلَّ) تَأتِي للتَّعليلِ -كَمَا هُنَا- وتَأتِي للتَّرجِّي، وتَأتِي للتَّوقُّع، والَّذِي يُعيِّنُ المَعْنَى هُوَ سِيَاقُ الكلَامِ وقَرائِنُ الأَحْوَالِ.

وقَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ: تَعلَمُونَ الطُّرُقَ، فالهِدَايَةُ هُنَا هِدَايَةُ الطُّرُق

إِلَى مَقَاصِدِكُم فِي أسفَارِكُمْ. والْآنَ -والحمْدُ لله- وُجِدَت طُرُقٌ مُمَهَّدةٌ بيِّنةٌ مِنَ المُدُنِ والقُرَى وغَيرِها، كُلُّ ذَلِكَ بنِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ المقْصُودُ بالهِدَايَةِ هِدَايَةُ الطُّرُقِ، فهَلْ يُمكِنُ أَنْ يُحمَلَ عَلَى هِدَايَةِ الاعتِبَارِ بالْآيَة؟

فالجَوابُ: لَا، فالسِّياقُ يَمْنَعُ هَذَا.



الآيــة (١١)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف:١١].

• ● ● •

وقَوْلُه: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ قِرَاءَتَانِ «مِهَادًا» وقَدْ جَاءَتْ فِي آيَةٍ أُخْرَى بهَذَا اللَّفْظِ، و﴿مَهْدًا﴾ وهِيَ بمَعْنَى (مِهاد).

قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ أَيْ: أَنزَلَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فتَجِدُ المَطَرَ ينزِلُ مِنَ السَّماءِ نُقَطًا، ولَوْ جَاءَ كأَفْواهِ القِرَبِ لأَفْسَدَ الأرْضَ وهدَمَ البِنَاءَ، ولكِنْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ جعَلَهُ ينزِلُ شَيْئًا فشَيْئًا، ومَعَ ذَلِكَ تَسِيلُ مِنْهُ الأودِيَةُ وَهُوَ مِنْ نُقطَةٍ نُقطَةٍ، لكِنْ مَعَ كَثرَتِهِ تَسِيل بِهِ الشِّعابُ.

وقَوْلُه: ﴿مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ السَّماءُ هُنَا المُرادُ بها العُلُوُّ، واعْلَمْ أنَّ السَّماءَ يُطلَقُ عَلَى مَعنيَيْنِ:

المعْنَى الأوَّل: العُلوُّ.

والمعْنَى الثَّانِي: السَّقْفُ المحفُوظُ الَّذِي هُوَ السَّمواتُ السَّبعُ.

فقَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] المُرادُ بالسَّماءِ هُنَا السَّقفُ المحفُوظُ، وكذَلِكَ قَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢]؛ وأمَّا قَولُهُ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ﴾ [الأنعام:٩٩] فالمُرادُ بِهِ العُلوُّ؛

لأَنَّ المَطَرَ لَيْسَ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ نَفْسِهَا، ولكِنَّهُ يَنزِلُ مِنَ العُلوِّ؛ بدَلِيلِ قَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسَّحابُ لَيْسَ فِي السَّماءِ لَاصِقًا، ولكِنَّهُ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، وهُوَ إِلَى الأَرْضِ أقْرَبُ.

إِذَنْ: فمِنَ المعْلُومِ أنَّ المَطَرَ لَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ الدُّنيا، إِنَّما يَنزِلُ مِنَ السَّحابِ المُسخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، والحِكمَةُ أنَّ اللهَ تعالَى أَنْزَلَهُ -أَيِ: المَطَرَ- مِنْ فَوقُ أَنْ يَروِيَ الأَرْضَ عُلويَّها وسُفليَّها، والحِكمَةُ أنَّ اللهَ جعَلَهُ نُقطًا حتَّى لَا تَفْسَدَ الأرْضُ ويَتهَدَّمَ البُنيانُ، لَوْ كَانَ ينْزِلُ كأفْوَاهِ القِرَبِ لفسَدَتِ الأرْضُ، لكِنْ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ نُقطًا.

وقَوْلُه: ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أَيْ: بقَدْرِ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ، ولَمْ يُنزِّلْه طُوفَانًا.

قَولُهُ: ﴿بِقَدَرٍ﴾ فسَّرَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: بقَدْرِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ] ولَهُ مَعْنًى آخَرُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ يَعْنِي: مُقَدَّرٌ مُحَدَّد، حتَّى النُّقطَةُ قَدْ عَلِمَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وعَلِمَ كَيفَ تَنْزِلُ، وعَلِمَ مَتى تَنْزِل، وعَلِمَ أَيْنَ تَنزِلُ، كُلُّ شَيْءٍ بقَدَرٍ؛ قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

فيَكُون المَعْنَى عَلَى هَذَا: أنَّ هَذَا المطَرَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى كثرَتِهِ وكثْرَةِ عددِ نِقَاطِهِ، ينْزِلُ بقَدَرٍ مُحَدَّد، والمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر معْنًى صَحِيحٌ، والْآيَة تَحتَمِلُ هَذَا وهَذَا، والقَاعِدَةُ عِنْدَنَا فِي التَّفسِيرِ أنَّ الكلِمَةَ فِي القُرآنِ أَوْ فِي السُّنَّة إذَا كَانَتْ تَحتَمِلُ معنيَينِ عَلَى السَّواءِ ولَا مُنافَاةَ بينَهُما، فإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ تُحمَلَ عليهِما؛ توسِعَةً للمَعْنَى.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: (أَنشَرْنا) أَيْ: أَحْيَيْنا، كَما جاءَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى؛ فِي قَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [فاطر:٩] فإِذَنْ (أَنشَرْنا) بمَعْنَى: أَحْيينا،

وهَذَا شَيءٌ مُشاهَد، تجِدُ الأرضَ قَاحِلَةً مُجدبَةً ليسَ فيهَا خَضْراء، فإِذَا نزَلَ المطَرُ أَصبحَتْ تَهتزُّ مِنَ النَّباتِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ.

وقولُه: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ هَذَا الإِحيَاءِ] ﴿تُخۡرَجُونَ﴾، يَعْنِي: كَمَا أَحْيَينا الأَرْضَ بالمطَرِ فكذَلِكَ نُحييكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ قَالَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ هَامِدَةً، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ أَيْ: عَلَتْ بنبَاتِها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ نعمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حيْثُ جعَلَ لَنَا الأَرْضَ مِهَادًا، ولَوْ كَانَتْ صُلبَةً مَا استقَرَرْنا عَلَيْـهَا، ولَا حَرَثْنَاها، ولَا انتَفَعْنـا بِهَا كثِيرًا، ولَوْ كَانَتْ رِخْـوةً كذَلِكَ لَمْ نَنتَفِعْ بِهَا، ولغَاصَتْ أَقْدَامُنا فِيهَا، ولكِنْ مِنْ نِعمَةِ اللهِ أَنْ جعلَها كالمِهَادِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: نِعمَةُ اللهِ عَلَيْنا بِمَا جعَلَ لَنَا مِنَ الطُّرُقِ عَلَى تبَاعُدِ أَقْطَارِهَا، ونَستدِلُّ عَلَى الطُّرقِ بالشِّعابِ والجِبَالِ، وكذَلِكَ بالنُّجُومِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْبَاتُ حِكْمَةِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فِيمَا يَخْلُقُ فِي قَولِهِ: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ وحِكْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِيمَا يَخْلُق وفِيمَا يُشرِّعُ ثَابِتَةٌ، لكِنَّ مِنَ الحِكَم مَا نَعْلَمُ، ومِـنَ الحِكَمِ مَا لَا نَعْلَمُ؛ لقُصورِ أفهَامِنَا، ومِنَ الحِكَمِ مَا يَعْـلَمُه كثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وتَخْفَى عَلَى كَثِيرينَ آخرِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ المَقصُودُ الحِسِّيُّ يَحتَاجُ إِلَى طُرُقٍ، فكَذَلِكَ المَقْصُودُ المَعنويُّ، وهُوَ الوُصُولُ إِلَى دَارِ كَرَامَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإِنَّهُ يَحتَاجُ إِلَى طُرُقٍ لَا بُدَّ أَنْ نَسلُكَ هَذِهِ الطُّرُقَ حتَّى نَصِلَ إِلَى المَقْصُودِ، فإِنْ لَمْ نَسلُكْها فلَنْ نَصِلَ إِلَى المَقصُودِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قُدرَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي إِنْزَالِ المطَرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: رحمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بإنْزَالِ المطَرِ مِنْ فَوقُ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَسْفَلُ لغَرقَتِ الأَرْضُ السُّفلَى دُونَ أنْ يَصِلَ الماءُ إِلَى قِمَمِ الجِبَالِ، ولكِنَّ اللهَ تعَالَى جعَلَهُ يَنزِلُ مِنْ فَوقُ حتَّى يَروِيَ العَالِيَ والنَّاسَ، وإِذَا ارْتَوى العَالِي نَزَلَ إِلَى النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا المَاءَ النَّازِلَ مِنَ السَّماءِ يَنْزِلُ بقَدَرٍ؛ عَلَى المَعنيَيْنِ اللَّذين ذكَرْنَاهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ اللهَ تعَالَى يُحيِي الأَرْضَ بعْدَ مَوتِها بهَذَا المَاءِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إطْلَاقُ لفْظِ (الموْتِ) عَلَى مَا لَا رُوحَ فِيهِ -أَيْ: مَا لَا رُوحَ فِيهِ تُحِسُّ-؛ لقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وإنَّ مِنَ المعلُومِ أنَّ الأَرْضَ ليْسَتْ كحَيَاةِ الحَيَوَانِ -حيَاةِ إحسَاسٍ- بَلْ هِيَ حيَاةُ نُمُوٍّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: قِياسُ المعقُولِ عَلَى المحسُوسِ، وإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: قِيَاسُ الغَائِبِ عَلَى الحَاضِرِ، لقَولِهِ: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، فقَد قَاسَ الغَائِبَ -وهُوَ إحيَاءُ المَوتَى- عَلَى الحَاضِرِ الَّذِي تُشاهِدُونَه، وهَذَا مِنْ طُرُقِ التَّعلِيلِ والتَّفهِيمِ.

الفَائِدَةُ الحَادِيَة عَشْرَةَ: إثبَاتُ القِيَاسِ، وأَنَّهُ دَلِيلٌ، وهُوَ دَلِيلٌ عقْلِيٌّ ثَابِتٌ بالدَّلِيلِ السَّمعيِّ؛ وذَلِكَ أَنَّ العَقْلَ يَنْتَقِلُ مِنَ المَقيسِ عَلَيْهِ إِلَى المَقِيسِ، فهُوَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ باعتِبَارِ كيفِيَّةِ الاستِدْلَالِ بِهِ، ودَلِيلٌ سمْعيٌّ لثُبوتِهِ شرْعًا.



الآيـة (١٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف:١٢].

قَوْلُهُ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ هذِهِ عطْفٌ عَلَى مَا سَبَقَ، وهُوَ مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفاتِ، ولَيْسَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الذَّواتِ، والأصْلُ فِي العطْفِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ مُتغَايِرَيْنِ فِي ذَاتِهِما -هَذَا أَصْلٌ-؛ فإِذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الذَّاتَ واحِدَةٌ صَارَ مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفاتِ، اقْرَأْ قَولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:١-٤]، هَذَا العطْفُ مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفاتِ؛ لأَنَّ المَوصُوفَ واحِدٌ، لكِنَّ الأصْلَ في العطْفِ أَنَّه مِنْ بَابِ تَغايُرِ الذَّواتِ، مَا لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المعطُوفَ علَيْهِ شَيْءٌ واحِدٌ، فيَكُون مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفات بعْضِها عَلَى بَعْضٍ لمَوصُوفٍ وَاحِدٍ.

فالآيَاتُ الَّتِي معَنَا مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفاتِ؛ لأَنَّ المَوصُوفَ وَاحِدٌ.

وقولُه: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾: ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ بمَعْنَى الأصنافِ، كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] أَيْ: أصنافَهُم. وقَالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨]، فقَولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أيِ: الأصْنَافَ، كُلَّ الأصْنَافِ الخَالِقُ لَهَا هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإِنَّكَ لتَعْجَبُ حينَما تَأْتِي إِلَى رَوْضَة

تَجِدُ هـذِهِ الأشجَارَ بعضُها زَهرُهَا أحمَرُ، وبعضُها أزرَقُ، وبعـضُها أَصفَرُ، مُلوَّنَةً، الَّذِي خلَقَهَا ولوَّنَها هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ويُحتَمَلُ فِي الْآيَة مَعْنًى آخَرُ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ يَعْنِي: الشَّيئَينِ المُزدَوَجَينِ اللَّذينِ يَتـولَّدُ بينَهُما ثَالِثٌ، كالذَّكَرِ والأُنْثَى، والسَّالبِ والمُوجَـبِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِك، الْآيَة تَحتَمِلُ المَعْنَيينِ جَمِيعًا، وهُمَا لَا يَتَنَافيَانِ فتُحْمَلُ علَيْهِما جَمِيعًا.

وقولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ بمَعْنَى: صيَّر.

وقَولُهُ: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ مَفعُولُ (جَعَل) أَيْ: جَعَلَ لكُمْ مِنَ الفُلْكِ، وهِيَ السُّفُنُ البَحريَّةُ، وكَانَ النَّاسُ لَا يَعرِفُونَ سِوَاهَا فِيمَا سَبَقَ، وأَمَّا الْآنَ فجَاءَتِ السُّفنُ الجَوِّيَّةُ، وهِيَ الطَّائِرَاتُ، أمَّا الأَنْعَامُ فمِثْلُ الإبلِ والبِغَالِ وغيرِهَا ممَّا يُركَبُ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أيِ: الَّذِي تركَبُونَهُ. وهَذِهِ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.



الآيتان (١٣، ١٤)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف:١٣-١٤].

• • ◦ • •

قَولُهُ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ اللَّام لَامُ العَاقِبَةِ، وليْسَتْ لَامَ التَّعلِيل؛ لأَنَّه مِنَ المُمكِنِ أَنْ يَكُونَ عنْدَ الإنسَانِ أنعَامٌ كثِيرَةٌ ولَا يَركَبُها، لكِنَّ اللَّامَ للعَاقبَةِ، تَأتِي اللَّامُ للعَاقِبَةِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وغَيرِهِ كَثِيرًا، وَمِنْهُ قَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] اللَّامُ فِي قَولِهِ: ﴿لِيَكُونَ﴾ ليسَتْ للتَّعلِيلِ؛ لأنَّ آلَ فِرعَونَ لَمْ يَلْتَقِطُوه لهَـذَا الغَرَضِ، لكِنِ التَقَطُوه فصَارَتْ هَذِهِ النَّتِيجَةُ. وتُسمَّى اللَّامُ فِي مِثْلِ هَذَا تُسمَّى (لَامَ العَاقِبَةِ).

وقَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أَيْ: تَعلُوا علَيها، وتَستقِرُّوا علَيهَا، ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ يَقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ذكَّر الضَّميرَ وجمَعَ الظَّهر؛ نظَرًا للَفْظِ (مَا) ومعْنَاهَا] ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ جمَعَ الظَّهر، ولَمْ يَقُـلْ: (عَلَى ظهرِهِ) وأَفْرَدَ الضَّمِيرَ ولَمْ يَقُـلْ: (عَلَى ظُهُورِهَا) نظَرًا للَفْظِ (مَا) ومعْنَـاهَا؛ لأَنَّ (مَا) تَصْلُحُ للمُفردِ والجَمْعِ، فتَارَةً يُراعَى اللَّفْظُ وتَارَةً يُراعَى المَعْنَى، إِذَا رُوعِيَ اللَّفظُ أُفرِد الضَّمِيرُ، وإِذَا رُوعِيَ المَعْنى صَارَ بحسَبِ المَعْنَى المقصُودِ.

وكذَلِكَ (مَنْ) تَارَة يُراعَى اللَّفظُ وتَارَةً يُرَاعَى معناه، اقْرأْ قَوْلَ اللهِ تعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الطلاق:١١]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾ رَاعَى اللَّفظَ فأَفْردَهُ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ رَاعَى المَعْنَى.

فقَولُه: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أَيْ: ظُهُورِ مَا تركَبُون مِنَ الفُلكِ والأنعَامِ، فجَمَعَ باعتبَارِ المَعْنَى، وأَفرَدَهَا باعتِبَارِ اللَّفظِ.

وقَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ يَتَذكَّرُ نعمَةَ اللهِ علَيْهِ؛ حيْثُ يَسَّر لَهُ هَذَا المَركُوبَ، ولَولَا تَيسِيرُ اللهِ مَا تمَكَّنَ مِنْ هَـذَا، فلَوْ جَعَلَ اللهُ الإِبِلَ صعبَةً لَا يُمكِنُ أَنْ تُركَبَ مَا انْتَفَعَ النَّاسُ بِهَا، ولَوْ فُقِدَتِ السُّفُنُ مَا اسْتَطَاعَ النَّاسُ أَنْ يَعبُرُوا مِنْ يَابِسٍ إِلَى يَابِسٍ، فلْيَـذْكُرِ الإنسَانُ نعْمَةَ اللهِ إِذَا اسْتَـوَى عَلَى ظَهْرِهِ. ﴿وَتَقُولُوا۟﴾ أَيْ: بأَلْسِنَتِكُمْ مُعتَرِفِينَ بقُلُوبِكُمْ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أَيْ: ذلَّلَـهُ لَنَا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُطِيقِينَ].

قَولُهُ تعالَى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٤] قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَمُنصَرِفُونَ].

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: نِعْمَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى عِبادِهِ؛ حَيْثُ جعَلَ لَهُمْ مِنَ الفُلْكِ والأنعَامِ مَا يركَبُونَهُ.

وذَكَرْنا أنَّ الفُلْكَ يَشْمَلُ الفُلْكَ الجَويَّ والبَحريَّ. ويُمكِنُ أَنْ نَقُولَ: والبرِيَّ أيضًا، كالسَّيَّاراتِ، فهَذِهِ أفلَاكٌ؛ فإِذَنِ الأفلَاكُ جَوِّيَّةٌ وبَحْريَّةٌ وبَرِّيَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَذْلِيلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الأنعَامَ لَنَا؛ حيْثُ سخَّرَها لنَركَبَها ونُحمِّلَها،

وهِيَ ذَلِيلَةٌ بَيْنَ أَيْدِينا، لقَولِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبَغِي للإنسَانِ إذَا رَكِبَ الأنعَامَ -وكذَلِكَ الفُلْكَ- أَنْ يَجْعَلَ مَركَبَهُ مُرِيحًا؛ لقَولِهِ: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إِذْ إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُرِيحًا لَمْ تَتِمَّ النِّعمَةُ، فيَنبَغِي أَنْ يَجعَلَهُ مُرِيحًا بقَدْرِ الإمكَانِ، وعَلَى حسَبِ الحَالِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنبَغِي للإنسَانِ أَنْ يَتذَكَّرَ نِعمَةَ اللهِ عَلَيْـهِ لِمَا سخَّرَ لَهُ مِنَ الفُلْكِ والأنعَامِ؛ لقَولِهِ: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾: (النِّعمَةُ) هُنَا مُفردٌ مُضَافٌ، فهَلِ المُرادُ أَنْ نَذكُرَ جَمِيعَ النِّعمِ أَوْ نَذْكُرَ النِّعمَةَ المُنَاسِبَةَ للحَالِ؟

الجَوابُ: الظَّاهِرُ هُوَ الثَّانِي؛ لأنَّ الإنسَانَ قَدْ لَا يَستَحْضِرُ حينَما يَتـذَكَّرُ كُلَّ النِّعمِ مِنَ الأَمْوالِ والأَولَادِ والأَمْنِ والطُّمأنينَةِ، ولكِنْ يَذكُرُ النِّعمَةَ الحَاضِرَةَ.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: استِحْبَابُ هَذَا الذِّكرِ عنْدَ الرُّكوبِ وهُوَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَمِاذَا اخْتِير كلمَةُ (سبْحَان) دُونَ (اللهُ أكبَرُ) مَثَلًا؟

فالجَوابُ: أَنَّ تَسبِيحَ اللهِ يَعنِي تَنزِيهَه عَنْ كُلِّ نقْصٍ وعَيْبٍ، بخِلَافِ الإنسَانِ فإِنَّهُ مُحتَاجٌ إِلَى الرُّكوبِ فهُوَ نَاقِصٌ، فنَاسَبَ أَنْ يَقُولَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ حتَّى إنَّه بحاجَةٍ إِلَى هَـذِهِ المَركُوباتِ، وأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عَنِ الحَاجَةِ.

يَعنِي لَوْ قال قَائِلٌ: لَمِاذَا لَمْ يَقُلْ: مَا أَعْظَمَ نِعمَةَ اللهِ عليَّ! أَوِ اللهُ أكبَرُ!؟

فالجَوابُ: أَنَّهُ لَمَّا رَأَى نفْسَهُ مُحتَاجًا إِلَى الرُّكوبِ نَزَّهَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الحَاجَةِ فقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنْ نَذكُرَ نِعمَةَ اللهِ علَيْنا بتَسخِيرِ هَذِهِ الأنعَامِ؛ لقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ:

﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أَيْ: مُطيقِينَ، لَوْلَا أَنَّ اللهَ تعالى سخَّر البَعِيرَ لَنَـا مَا أَطَقْنَاهَا، فالبَعِيرُ أقْوَى منَّـا، وأكبَرُ منَّا جِسْمًا، لَوْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جعلَهَا صَعْبَةً فَلَا يُمكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَستَقِرَّ علَيْهَا، أَوْ أَنْ يَحمِلَ علَيْهَا، أَوْ أَنْ يُدخِلَها إِلَى أَيِّ مَكَانٍ شَاءَ، أَوْ أَنْ يُخرِجَها مَتَى شَاءَ، ولكِنَّ اللهَ سخَّر هَذَا لَنَا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: اعتِرَافُ العبْـدِ بقُصُورِهِ وضعْـفِهِ؛ لقَـولِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أَيْ: مُطيقِين.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإنسَانَ إذَا رَكِبَ هـذِهِ المَركُوباتِ يَتَذكَّرُ الرُّكوبَ الَّذِي هُوَ غَايَةُ الدُّنيا؛ لقَولِهِ: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وتَفْسِيرُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَهَا بالإِنْصِرَافِ أَيْ: (لَمُنصَرِفُونَ إِلَى اللهِ) فِيـه قُصُورٌ، والصَّـوابُ: مَا ذكَرْنا أَنَّكَ إِذَا رَكِبْتَ تتـذَكَّرُ رُكوبَكَ عَلَى النَّعشِ حِينَ تَنقَلِبُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيَكُونُ فِي هَذَا تذَكُّرٌ للحَالِ المُستَقْبلَةِ لبَنِي آدَمَ، وهِيَ حَالُ الانقِلَابِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهَذَا الذِّكرُ عَامٌّ، كُلَّما رَكِبْتَ السَّيَّارةَ أَوِ البَعِيرَ أَوِ الطَّائِرَةَ تَذْكُرُ هَذَا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: المِصْعَـدُ الكهرَبائِيُّ يُشرَعُ فِيهِ هَـذَا الدُّعاءُ: (سُبْحَانَ الَّذِي سخَّر لنَا هَذَا)؟

فالجَوابُ: هَذَا مَحِلُّ نظَرٍ؛ لأَنَّ هَذَا المصعَدَ الكهرَبائِيَّ فِي مَنزِلَةِ الدَّرَجِ، ولَيْسَ بمنْزِلَةِ الرَّاكبِ الَّذِي يَسِيرُ، بَلْ هَذَا يَصعَدُ إِلَى فَوْقُ، فَفِي كَونِهِ مِنْ بَابِ المَركُوباتِ نَظَرٌ.

مَسْأَلةٌ: دُعَاءُ نُزُولِ المكَانِ: (أَعُوذُ بكلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) هَلْ خَاصٌّ بالسَّفرِ أَوْ عَامٌّ؟

فالجَوابُ: عَامٌّ، حتَّى إِذَا نَزَلْتَ بَيْتًا تَقُول: (أَعُوذُ بكلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ)، وعنْـدَ النَّومِ تَقُولُ: (أَعُوذُ بكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ)، وفِي أَوْرَادِ اللَّيلِ والنَّهارِ تَقُولُ: (أَعُوذُ بكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ)؛ أَمَّا المَسجِدُ فلَهُ ذِكْرٌ خَاصٌّ، فالإنسَانُ لَيْسَ نازِلًا في المَسْجِدِ، إِنَّما هُوَ مُقِيمٌ لطَاعَةٍ مُعيَّنَةٍ ويَمضِي.



الآية (١٥)

• • ❁ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:١٥].

• • ❁ • •

قَولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى مُشركي قُريشٍ. أَيْ: صَيَّروا ﴿لَهُۥ﴾ أَيْ: لله ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أَيْ: مِنْ مَخلُوقَاتِهِ، وجَمِيعُ المَخلُوقَاتِ عِبَادٌ لله عَزَّوَجَلَّ، والمُرادُ بالعِبَادِ هُنَا: الملائِكَةُ ﴿جُزْءًا﴾ أَيْ: بَعْضًا مِنْهُ، حَيْثُ قَالُوا: الملائِكَةُ بنَاتُ اللهِ، واليَهُودُ قَالُوا: عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ، والنَّصارَى: قَالُوا المَسيحُ ابْنُ اللهِ.

وقَولُهُ: ﴿جُزْءًا﴾؛ لأنَّ الولَدَ جُزْءٌ مِنْ أَبيهِ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ فِي ابْنَتِهِ فاطَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيبُهَا مَا رَابَنِيْ»[1]، وَذلِكَ حِينَما تَحدَّثَ النَّاسُ أَنَّ عليَّ ابْنَ أَبِي طالِبٍ يُرِيدُ أَنْ يتزَوَّجَ علَيْها بنْتَ أَبِي جَهْل فأَنْكَرَ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ذَلِكَ وقَالَ: «لا يُمْكِنُ أَنْ تَكُوْنَ بِنْتُ نَبِيِّ اللهِ مَعَ بِنْتِ عَدُوِّ اللهِ».

إِذَنِ: الجُزْءُ البعْضُ، والقَائِلُ ثلَاثَةُ أصنَافٍ مِنَ النَّاسِ: المُشرِكُونَ، واليَهُودُ، والنَّصارَى.

فهَؤُلاءِ المُشرِكُونَ -والعِيَاذُ باللهِ- جعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءًا، وتَأَمَّلْ قَولَهُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النَّبيّ ﷺ، باب ذكر أصهار النَّبيّ ﷺ، رقم (٣٧٢٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النَّبيّ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يَتبيَّنْ لَكَ أنَّ كونَهُم مِنْ عِبَادِ اللهِ يَمْنَعُ غَايَةَ المَنْعِ أَنْ يَكُونُوا جُزْءًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ المعبُودَ غيرُ العَابِدِ، فَلَا يُمكِنُ أَنْ يكُونَ العَابِدُ جُزْءًا مِنَ المَعبُودِ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ المَرادُ الجِنْسُ. يَعْنِي أَنَّ جِنْسَ الإنسَانِ ﴿لَكَفُورٌ﴾ بَيِّنُ الكُفْرِ، فَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا أَنْ يُقَال: مِنَ الإنسَانِ مَنْ هُوَ مُؤمِنٌ كَامِلُ الإِيمَانِ؛ لأَنَّنَا نَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ يُرَادُ بِهِ الجِنْسُ، كقَـولِهِ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، والمُؤمِنُ لَيسَ ظَلُومًا جَهُولًا، لكِنَّ جِنْسَ الإنسَانِ ظَلُومٌ جَهُولٌ.

وقَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: بيِّنُ الكُفْرِ، وذَلِكَ لأَنَّ (بَانَ) بمَعْنَى (ظَهَرَ) تكُونُ بالهَمْزَةِ وتكُونُ بغَيْرِ الهَمْزَةِ، بمَعْنَى أَنَّهُ يَجُوزُ لُغَةً أَنْ تَقُولَ: بَانَ الفَجْرُ، وأَبَانَ الفَجْرُ. وعَلَيْه فيَكُونُ مَعْنَى ﴿مُّبِينٌ﴾ أَيْ: وَاضِحُ الكُفْرِ، ولا شَكَّ أَنَّ الَّذِي يَقُولُ: الملائِكَةُ بنَاتُ اللهِ، أَوْ عِيسَى ابْنُ اللهِ، أَوْ عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ. لَا شكَّ أَنَّهُ قَدْ كَفَرَ كُفْرًا بَيِّنًا.

وتُستَعْمَلُ (أَبَانَ) بالهمْزَةِ متَعـدِّيةً، يُقَالُ: أَبَانَ الشَّيءَ بمَعْنَى: أظْهَرَهُ، ومِنْـهُ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الَّذِي سَبَقَ فِي أوَّلِ السُّورَةِ، أيِ: المُظهِرُ للحقَائِقِ المُبَيِّنُ لَهَا.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَلْ كُلَّما جاءَ مِثْلُ هَذَا التَّعبيرِ نَحمِلُهُ عَلَى الجِنْسِ؟

فالجَوابُ: لَا نَحمِلُهُ عَلَى الجِنْسِ إِلَّا إذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى هَـذَا، وإِلَّا فالأَصْلُ العُمُومُ، فقَوْلُهُ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، المُرادُ كُلُّ الإنسَانِ، لكِنْ إِذَا تَعـذَّرَ أَنْ نَحمِلَها عَلَى العُمُومِ جعَلْناهَا للجِنْسِ، وأَضْرِبُ لَكَ مَثَـلًا يَتبيَّنُ بِهِ المَقَامُ: الرَّجُلُ خيْرٌ مِنَ المرأَةِ. المُرادُ الجِنْسُ، ولَيْسَ المَعْنَى: كُلُّ وَاحِـدٍ مِنَ الرِّجالِ

خَيْرٌ مِنْ كُلِّ امرَأةٍ مِنَ النِّساءِ؛ لأَنَّ مِنَ النِّساءِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الرِّجالِ، لكِنَّ الْمُرادَ الجِنْسُ. يَعْنِي: هَذَا الجِنْسُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الجِنْسِ.

وإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بَدَأَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ جعَلَ، جعَلَ، جعَلَ؛ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَها ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ فهَلْ هُنَاكَ تَنَاسُبٌ بَيْنَ هَذِهِ؟

فالجَوابُ: يُقَالُ: إنَّ هَـذَا تَنَاسُبٌ لفظِيٌّ؛ لأَنَّه أحيَـانًا يَكُونُ الكَلَامُ -إِذَا كَانَ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ- أَبلَغَ، فيَكُونُ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنَاسُبِ اللَّفظِيِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الولَدَ جُزْءٌ مِنْ وَالِدِهِ؛ لقَـولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾؛ ولذَلِكَ كَانَ الولَدُ فِي التَّعصِيب فِي بَابِ المِيراثِ مُقدَّمًا عَلَى الوَالِدِ، بمَعْنَى: أَنَّه لَوْ مَاتَ ميِّتٌ عَنْ أَبِيـهِ وابْنِهِ، فلأَبيهِ السُّدُسُ فَرْضًا، والبَاقِي لِلابْنِ تَعْـصِيبًا، فسَهْم الابْنِ الْآنَ خمسَةٌ مِنْ سِتَّةٍ، وسهْمُ الأَبِ وَاحِدٌ مِنْ سِتَّة؛ لأَنَّ الابْنَ جُزْءٌ مِنْ أَبِيهِ فقُدِّم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَجُوزُ للأَبِ أَنْ يَتمَـلَّك مِنْ مَالِ ولَدِهِ؛ لأَنَّ ولَـدَهُ جُزْؤُه، وإِذَا كَانَ جُزْءًا مِنْـهُ، صَارَ كسَائِرِ جَسَدِهِ، ولهَـذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**»[1] فلِلْأَبِ أَنْ يَتملَّك مِنْ مَالِ وَلَدِهِ مَا شَاءَ، بشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ الولَدُ مُحتَاجًا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٠٤)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٣٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِلَيْهِ، أَوْ تتعَلَّق بِهِ نفْسُهُ، فمثلًا إِذَا كَانَ عندَ الابْنِ أَمَةٌ قَدْ تسرَّاها وتَعلَّقَتْ بِهَا نفْسُهُ؛ فإنَّه لَا يَجُوزُ للأَبِ أَنْ يتملَّكها، مَعَ أَنَّهُ لَا يُمكِنُ أَنْ يطَأَها؛ لأَنَّها حَلِيلَةُ ابْنِه، لكِنْ حتَّى: وَلَا التَّملُّك؛ لأَنَّ حاجَتَهُ مُتعلِّقَةٌ بِهَا.

وكذَلِكَ لَوْ تعلَّقَتْ بمَالِهِ ضَرُورةٌ، كابْنٍ عنْدَهُ مَالٌ أَعدَّه للمَهْرِ حِينَ يَتزوَّجُ، فليسَ للأَبِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، كذَلِكَ لَوْ كَانَ عنْدَهُ سيَّارةٌ أَعدَّها لحَاجتِهِ وضَرُورتِهِ، فليْسَ للأَبِ أَنْ يَتملَّكَها، إنَّما يَتملَّك الفَضْلَ فقَطْ، دَلِيلُ هَذَا قَولُهُ ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»(١).

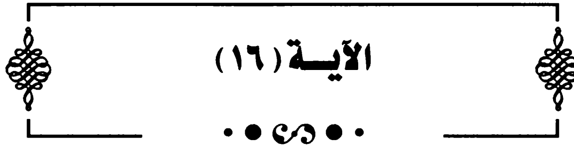
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ عُتُوِّ الْمُشرِكينَ واليَهودِ والنَّصارَى، حيْثُ جعَلُوا الَّذِي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣-٤] جعَلُوه وَالِدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسَانَ بطبِيعَتِهِ كَفُورٌ مُبِينٌ، هَذَا إذَا جعَلْنا (الإنسَانَ) للجِنْسِ، أَمَّا إِذَا جعَلْنا (الإنسَانَ) يَعُودُ عَلَى الَّذِي جعَل مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، فإنَّه يَكُونُ خَاصًّا، لكِنَّ المَعْنَى الأَوَّل هُوَ ظَاهِرُ قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] فأَصْلُ الإنسَانِ الظُّلْمُ والجَهْلُ إِلَّا أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهِ بالعِلْمِ والإِيمَانِ.



---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٢٧)، وابن ماجه: كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم (٢٣٤٠)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الإمام أحمد (١/ ٣١٣)، وابن ماجه رقم (٢٣٤١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ [الزخرف:١٦].

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾: ﴿أَمِ﴾ هُنَا مُنقَطِعَةٌ، بمَعْنى بَلْ والهمْزَةُ، واعْلَمْ أنَّ (أَمْ) تَأْتِي مُتَّصِلَةً إِذَا كَانَتْ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَسَاوِيَيْن، ومُنقطِعَةً إِذَا كَانَ مَا بعْدَها مُنقطِعًا عمَّا قبْلَها، فَفِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة:٦] هَذِهِ مُتَّصِلةٌ، وفِي مِثْل هذِهِ الْآيَةِ ﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعَةٌ، الْمُنقطِعَةُ يُقدِّرُها النَّحويُّون بـ(بَلْ) والهمْزَةِ.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمِ﴾ بمَعْنى هَمْزَةِ الإنْكَارِ، والقَوْلُ مُقدَّر، أَيْ: أَتقُولُونَ ﴿ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ﴾ لنفْسِهِ ﴿وَأَصۡفَىٰكُم﴾ أخْلَصَكُم ﴿بِٱلۡبَنِينَ﴾ اللَّازِم مِنْ قَولِكُم السَّابِقِ فهُوَ مِنْ جملَةِ الْمُنكَرِ].

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ قدَّرهُ المفسِّر بمَعْنَى: (بَلْ يقُولُونَ)، ولَا حَاجَةَ لهَذَا التَّقدِيرِ، بَلْ هُوَ كَلامٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ أَنْكَرَ عَلَى هَؤُلَاءِ، يَعْنِي: بَلْ عَلَى قَولِكُم: ﴿ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ﴾ لأنَّهُم قَالُوا: الملائكَةُ بنَاتُ اللهِ، ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ يَعْنِي: أَخلَصَكُم بالبَنِينَ وخصَّكُم بهَا؛ لأَنَّهُم يَقُولُونَ: البنَاتُ لله، والبَنُون لَنَا. فهَلْ هَذَا عَدْلٌ، هَلْ هَذَا حَقٌّ؟!

الجوابُ: هَذَا مُنكَرٌ وجَـوْرٌ، عَلَى الأَقَلِّ لَوْ قَالُوا: إِنَّهُم سوَاءٌ لكَانَ أهْوَنَ، مَعَ أَنَّهُ مُنـكَرٌ، لكِنْ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ هَـذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الجَـورِ والظُّلمِ.

وقولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهُمُ الملائِكَةُ الَّذِين زَعَمُوا أَنَّهُم بناتُ اللهِ ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ فالهمْزَةُ إذَنْ مُقدَّرةٌ للإنْكَارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الإنْكَارُ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِين جعَلُوا لله ولَدًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ كيْفَ يَكُونُ المخْـلُوقُ وَلَدًا للخَالِقِ؟! ولهـذَا قَالَ: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، وهَذَا لَا يُمكِن؛ لأنَّ المخلُوقَ مُنفصِل بائِنٌ عَنِ الخَالِقِ فلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا لَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشَارَةُ إِلَى جوْرِ أولَئِكَ القَائلِينَ بأَنَّ الملائِكَةَ بناتُ اللهِ؛ لقَولِهِ: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ يَعْنِي: أَيُعقَل أَنْ يَكُونَ هكَذَا!.



الآيــة (١٧)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف:١٧].

• • ◦ • •

قَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ﴾ يَعْنِي: بذَلِكَ قُرِيشًا وأشباهَهم مِمَّنْ يكرَهُون البنَاتِ ويَئِدُونَهم.

قَولُهُ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ﴾ أَيْ: أُخبِرَ بأَنَّهُ وُلِدَ لَهُ بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾.

وقَولُهُ هُنَا: ﴿ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ ولَمْ يقُلْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَة الثَّانيَةِ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأَنَّها سَبقَها ذِكْرُ قَولِ هَؤُلاءِ: إنَّ الملائِكَةَ بنَاتُ اللهِ. فضَرَبُوها مثَلًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فإذَا بُشِّر أحدُهُم بهَذَا الَّذِي ضَربه مَثلًا للرَّحمنِ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أَيْ: صَارَ وجهُه مُسوَدًّا.

و(ظَلَّ) هُنَا بالظَّاء المُشالَةِ؛ لأنَّها بمَعْنَى: صَارَ، أمَّا (ضَلَّ) الَّتِي هِيَ بالضَّادِ فهِيَ بمَعْنَى: تَاهَ وضَاعَ، تَقُولُ: ضَلَّ الطَّرِيقَ. بمَعْنَى: تَاهَ وضَاعَ.

أمَّا ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ فهُوَ بمَعْنَى صَارَ وَجْهُه مُسودًّا. أَيْ: بعْدَ أَنْ كَانَ أَبْيضَ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُهُ: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ هذِهِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ أَمْ فِي الدُّنيَا؟

فالجَوابُ: لَا، فِي الدُّنيَا.

وقَولُهُ: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَيْ: مُملوءٌ غَيْظًا وحُزْنًا.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ جعَلَ لَهُ شَبَهًا بنِسبَةِ البنَاتِ؛ لأَنَّ الوَلَدَ يُشبِهُ الوالِدَ، والمَعْنَى: إذَا أُخبِر أحدُهُم بالبِنْتِ تُولَدُ لَهُ، ﴿ظَلَّ﴾ صَارَ، ﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ مُتغيِّرًا تَغيُّرَ مُغتَمٍّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مُمتَلِئٌ غمًّا، فكَيْفَ يَنسُب البنَاتِ إِلَيْهِ تعَالَى عَنْ ذَلِكَ]، وهَذَا مَعْنَى مَا تَكلَّمْنا فِيهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ذِكْرُ حَالِ هَؤُلاءِ عنْدَما يُبشَّرون بالبَنَاتِ: أَنَّ الوَاحِدَ مِنْهُم يَتغَيَّر ظَاهِرُه وباطِنُه، ظَاهِرُه في اسْودادِ وَجْهِهِ، وبَاطِنُهُ بامتِلَائِهِ ظنًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّندِيدُ التَّامُّ بهؤُلاءِ؛ حيْثُ إنَّهُم إِذَا بُشِّروا بالأُنْثى صَارَتْ لهُمْ هذِهِ الحَالُ، وهُمْ يَدَّعونَها للخَالِقِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبَاتُ اسْمِ الرَّحمنِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرَّحمنُ يَعْنِي: ذُو الرَّحمَةِ الوَاسِعَةِ، وهَـذَا الاسْمُ الكَرِيمُ تُنكِرُه قُرِيشٌ، قَالَ تَعَـالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ولَمَّا أَرَادَ النَّبيُّ أَنْ يَكتُبَ كتَابَ الصُّلح فِي الحُدَيْبيةِ وقَالَ للكَاتِبِ: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»[1] أَبَى رَسُولُ قُريشٍ وقَالَ: إنَّنا لَا نَعرِفُ الرَّحمنَ، ولكِنِ اكتُبْ: باسْمِكَ اللَّهُمَّ. ولَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنزُّل، ولكِنْ مِنْ بَابِ التَّأْلِيفِ وإمضَاءِ المُعاهَدَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ورَحمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تشْمَلُ الكَافِرِينَ، فلَوْلَا رَحمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَا بَقِيَ الكَافِرُ لحظَةً واحِدَةً، فالكَافِرُ مَرحُومٌ، والمُؤمِن مَرحُومٌ، لكِنَّ الفَرْق أنَّ المُؤمِنَ مَرحُوم فِي الدُّنيا والآخِرَةِ، والكَافِرُ مَرحُومٌ فِي الدُّنيا، قَدْ أَغْدَق اللهُ علَيْهِ النِّعَمَ، وعجَّل لَهُ الطَّيِّبات، لكنَّه فِي الآخِرَةِ يُعامَل بالعَدْلِ، ويُجازَى بِمَا يَستَحِقُّ.

إذَنْ نَقُولُ: الرَّحمَةُ العَامَّةُ تشْمَلُ المُؤمِنَ والكَافِرَ، والخَاصَّةُ تَختَصُّ بالمُؤمنِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَغيَّرُ البشَرَةِ بِمَا يَسُرُّ أَوْ يَسُوء، فإِذَا بُشِّر الإنسَانُ بما يَسُرُّ فإِنَّ وَجْهَهُ يَبرُقُ مِنَ السُّرورِ، وتُحِسُّ بأَنَّه مَسرُورٌ بِهِ، والعَكْسُ بالعَكْسِ.

ويَتفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفَائِدَةِ: أنَّ الجِسْمَ تبَعٌ للقَلْبِ، فإِذَا استَنَارَ القَلْبُ وفَرِحَ فكَذَلِكَ الجِسْمُ، والعَكْسُ بالعَكْسِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ المُشرِكينَ لَا يَرضَوْنَ بتقْدِيرِ اللهِ فإِنَّهُم يَتغَيَّرونَ ظَاهِرًا وبَاطِنًا، ظَاهِرًا باسْوِدَادِ الوُجُوهِ، وبَاطِنًا بالامتِلَاءِ ظَنًّا.



الآيــة (١٨)

• • ❊ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨].

• • ❊ • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، الهمزَةُ للاستِفهَامِ، والوَاوُ حرْفُ عطْفٍ، و(مَنْ) اسْمٌ مَوصُولٌ يَعْنِي: أَوِ الَّذِي يُنشَّأُ فِي الحِلْيَةِ أَيْ: يُربَّى فِيهَا ويَحتَاجُ إِلَيْهَا.

وقَولُه: ﴿أَوَمَن﴾ يَقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [همْزَةُ الإنكَارِ، وَاوُ العَطْف بجُمْلَةٍ أَيْ: يجعَلُونَ لله ﴿يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾] يَعْنِي: أنَّ العطْفَ هُنَا عَلَى تَقْدِير يجعَلُون، بَقِيَ عنْدَنا: أيْنَ المُعادِل؟ المُعَادِلُ كمَنْ لَيْسَ كذَلِكَ.

ومَعْنَى ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾ أَيْ: يُربَّى ﴿فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ قَالَ المُفسِّر: [أَيِ: الزِّينَةِ ﴿فِي ٱلْخِصَامِ﴾ عنْدَ الخُصُومَةِ ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غَيْرُ مُظْهِرٍ للحُجَّةِ؛ لضَعْفِهِ عَنْهَا بالأُنوثَةِ].

وقَولُه: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أيْ: مُظهِرٌ لِمَا فِي نَفْسِهِ يَعْنِي: كمَنْ لَيْسَ كذَلِكَ. والإشارَةُ بهَذَا الوصْفِ إِلَى الأُنثَى؛ لأنَّ الأُنثَى تُنشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وتُحلَّى لتتجَمَّلَ فتَحْتَاجُ إِلَى مَا يُكمِّلُها، وهِيَ أيضًا ليسَتْ ذَاتَ خصُومةٍ، بَلْ هِيَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبينٍ، كمَنْ لَيْسَ كذَلِكَ.

فالمَرأَةُ ليسَتْ جميلَةً بذَاتِها، ولكنَّها مُحتَاجَةٌ إِلَى مَا يُجمِّلُها، ولهَذَا تَجِدُ عنْدَ النِّساءِ

مِنَ المَوضَاتِ، كمَنْ لَيسَ لهُـنَّ هَمٌّ إلَّا المَوضَاتُ والتَّجمُّل والتَّحسِين، ومَا أشْبَـهَ ذَلِكَ؛ لأنَّها بنَفْسِهَا قَاصِرَةٌ، كذَلِكَ أيضًا بقَولِهَا قَاصِرَةٌ: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ عنْدَ المَخاصمَةِ تَكُونَ مغلُوبَةً لا تُظهِرُ الحُجَّةَ؛ لأنَّها ضَعِيفةٌ بالأُنُوثَةِ.

بَقِي: مَا هُـوَ المُقابِلُ؟ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا﴾ لا بُدَّ مِنْ مُقَـابِلٍ: كمَنْ لَيْسَ كذَلِكَ، أَيْ: كَمَنْ لَا يَحتَاجُ إِلَى أَنْ يُنشَّأَ فِي الحِلْيَةِ، وكمَنْ هُوَ فِي الخِصَامِ مُبِينٌ، وهُوَ الذَّكَرُ، المَعْنَى: أنَّ اللهَ يُضِيفُ لَوْمًا إِلَى لَوْمٍ عَلَى هَؤُلَاءِ حيْثُ يَجعَلُون للهِ القَاصِرَ فِي مقَالِهِ وفِعَالِهِ، ويَجعَلُونَ لهُمُ الكَامِلَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قصُورُ المَرْأَةِ، وأنَّهُ لَا يُمكِنُ أَنْ تُساوِيَ الرَّجُل فِي عَقْلِهَا ودِلَّهَا؛ لقَولِهِ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ...﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المَرْأَةَ لَيسَ لهَا همٌّ إلَّا التَّجمُّل والعِنَايَةُ بمَظْهَرِهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المَرْأَةَ لَيسَتْ ذَاتَ خِصَامٍ، بَلْ هِيَ ضَعِيـفَةٌ لَا تَستَطِيعُ أَنْ تُخاصِمَ ولَا تُبِين مَا فِي قَلْبِهَا مِنَ الحُجَّةِ؛ ولهَذَا لَمَّا تَولَّت بِنْتُ كِسْرَى عَلَى الفُرْسِ، وبَلَغَ ذَلِكَ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**»[1].

واختَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى قَولِهِ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» هَلْ هَذَا خَاصٌّ بهَذِهِ القَضيَّةِ المُعيَّنَةِ، بمَعْنَى: أنَّ هؤُلَاءِ لَنْ يُفلِحُوا؛ لأنَّهُم وَلَّوْا أَمرهُمُ امرَأَةً، أَوْ أنَّ هَذَا عَامٌّ لكُلِّ مَنْ ولَّى أَمرَهُ امرَأَةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى كسرى وقيصر، رقم (٤٤٢٥)، من حديث أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فإِنْ نظَرْنا إِلَى العُمُومِ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» قُلْنا: هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ قَـوْمٍ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً، وإِنْ نظَرْنا إِلَى القَـضيَّةِ المُعيَّنَةِ قُلْنا: إِنَّهُ خَـاصٌّ. وإِذَا نظَرْنا إِلَى الوَاقِعِ فهَلِ المرْأَةِ الَّتِي تَتَولَّى أُمُورَ الرِّجالِ هَلْ تُفلِحُ؟

الجَوابُ: إِنْ أَفلَحَتْ فذَلِكَ بمَعْونَةِ الرِّجالِ، أَوْ فَلاحٌ نِسبيٌّ؛ يَعْنِي: امرَأةٌ مَثَلًا تَكُونُ رَئِيسَةَ وُزارَةٍ، لَنْ يُفلِحَ قَومُها إِلَّا بمُسانَدَةِ الرِّجالِ لَهَا، هذِهِ واحِدَةٌ، أَوْ يُقَالُ: هُوَ فَلاحٌ نِسبيٌّ، فلَوْ تولَّى غيرهَا مِنَ الرِّجالِ؛ لكَانَ ذَلِكَ أَفْلَحَ لَهُمْ.

وكذَلِكَ أيضًا لَنْ يُفلِحَوا إِذَا وَلَّوْا أمرَهُمْ فِي غَيْرِ الرِّئاسَةِ كالوَزارَةِ مَثَلًا، لَنْ يُفلِحُوا، ومَنْ عَـرَفَ النِّساءَ وكثْرَةَ خُصُومِهِنَّ ومَشاكِلِهِنَّ إِذَا تَولَّوْا حـتَّى إدارَةَ مَدرَسَةٍ؛ عَرَفَ أنَّ المرْأةَ لَا تَصلُح إطْلَاقًا للوَلايَةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا عَلَى بَنِي جِنْسِها، فهَذَا رُبَّما؛ لأَنَّ الضَّعيفَ للضَّعيفِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّناءُ عَلَى الرِّجالِ؛ لأَنَّهم إِذَا كَانَتِ النِّساءُ لَا تَكمُلُ بذَاتِهَا، ولَا بالفِعْالِ، ولَا بالمَقَالِ، فهَذَا يَعْنِي أَنَّ الرِّجالَ كُمَّلٌ، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللهِ تعَـالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] يَتبيَّنُ لَكَ أَنَّ القُنُوتَ والعِبادَةَ فِي الرِّجالِ أَكْثرُ؛ ولهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ: آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النَّبيِّ ﷺ، باب فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٧٦٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعَالَى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٣١)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُلُّ هَذَا نُرِيدُ أَنْ يَبقَى فِي أَذْهَانِنا أنَّ المَرْأَةَ قَاصِرَةٌ، وأنَّ مَنْ يُحاوِلُون أَنْ يَجعَلُوها كالرِّجالِ؛ فإِنَّهم مُخالِفُون للفِطْرةِ والطَّبيعَة، كَمَا أَنَّهُم مُخالِفُون للشَّريعَةِ.

خطَبَ النَّبيُّ ﷺ النِّساءَ فِي يَوْم عِيدٍ، يَومَ الفَرَحِ والسُّرورِ، وبيَّنَ حَالَهُنَّ فقَالَ: **«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»**[1] مَعَ أَنَّه يَومُ فَرَح ويَوْمُ سُرُورٍ، كَانَ مِنَ المُتوقَّعِ أَنْ يُدخِلَ عَلَيْهِمُ النَّبيُّ ﷺ السُّرورَ، لكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يُبيِّن حَالَهُنَّ الآنَ، أُولَئِكَ القَومُ مِنَ الكُفَّارِ وغَيرِهِمُ الَّذِين سَاوَوُا النِّساءَ بالرِّجالِ فِي أَكْثَرِ الأشيَاءِ أحوَالُهُمْ غَيْرُ مُستَقِيمَةٍ، وغَيْرُ تَامَّةٍ، مَعَ أَنَّهُم لَنْ يَستَطِيعُوا أَنْ يُلحِقُوا النِّساءَ بالرِّجالِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، هَذَا مُستَحيلٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (١٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩].

قَولُه تعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْمُشرِكينَ، ومَعْنَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ﴾ أَيْ: صَيَّروا؛ ولذَلِكَ نَصبَتْ مَفْعُـولَينِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الَّذِين أَتمُّوا العُبوديَّةَ عَلَى الوَجْهِ الأكْمَلِ؛ حَيْثُ وَصفَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بأَنَّهُم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧] ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ وذَلِكَ بقَوْلِهم: إنَّ الملائِكَةَ بِنَاتُ اللهِ. انْظُرُوا هَذَا الافْتِرَاءَ!

أَوَّلًا: افْتَرَوْا بأَنَّهُم بنَاتُ اللهِ.

ثانِيًا: افْتَرَوْا بأَنَّهُم بنَاتٌ، ومَا يُدْريهِمْ أَنَّ الملائكَةَ بنَاتٌ؟ لكِنْ لَّما كَانَ وَصْفُ الأُنوثَةِ وَصْفًا رَدِيئًا -عِنْدَهُم- قَالُوا: هُمْ إنَاثٌ وَالبَنُونَ لَهُمْ.

وقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُنكِرًا علَيْهِم: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ يَعْنِي: أَحَضَرُوا خَلْقَهُم، وعَرَفُوا أَنَّهُم إنَاثٌ، والاستِفْهَامُ هُنَا للإنكَارِ أَوْ للتَّحدِّي. يَعْنِي: أَنَّ اللهَ أَنْكَرَ علَيْهِمْ، أَوْ تحَدَّاهُم هَلْ حَضَرُوا أَوْ لَا، وهَذَا كقَولِهِ تعَالَى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف:٥١].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ بأنَّهم إناثٌ] ﴿سَتُكۡتَبُ﴾ تُكتبُ عَلَى أنَّها فِريَةٌ وشهَادَةُ زُورٍ، ويُعاقَبُون عَلَيها، والسِّينُ هُنَا للتَّقريبِ والتَّحقِيقِ، وتُكتَبُ لَمْ يُبيِّنْ فَاعِلَ الكِتَابَةِ، فاللهُ أعْلَمُ، هَلْ يَكتبُها اللهُ أَوِ المَلائِكَةُ؟ والظَّاهِرُ أَنَّهُمُ المَلائِكَةُ؛ لأَنَّ المَلَائِكَةَ مُوَكَّلُون بعَمَلِ بَنِي آدَمَ يَكتبُونَ ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ عَنْهَا فِي الآخِرَةِ فيَترَتَّبُ عَلَيْهَا العِقَابُ].

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ: «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ» عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ كيْفَ نُفسِّرُ عِنْدَهُ؟

فالجَوابُ: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ كَمَا جَاءَ فِي القُرْآنِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيَانُ افتِرَاءِ هؤُلَاءِ الْمُشرِكينَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجْهُ الأَوَّلُ: أنَّهم جعَلُوا المَلائِكَةَ إنَاثًا، ومَا يُدرِيهِمْ؟!

الوجْهُ الثَّانِي: أنَّهُم نَسبُوهُمْ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحدِّي هؤُلَاءِ الْمُفتَرِينَ بقَوْلِهِ: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ والجَوابُ: لَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَهدِيدُ أُولَئِكَ الْمُفترِينَ بأَنَّ شَهادَتَهُم ستُكتَبُ، ويُعاقَبُون عَلَيْهَا؛ لقَولِهِ: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثْبَاتُ الحِسَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أقْوالَ الإنسَانِ تُكتَبُ عَلَيْهِ كأفعَالِهِ؛ لأَنَّ الشَّهادَةَ هُنَا بالقَوْلِ.

الآيـة (٢٠)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠].

• ● ● •

ثُمَّ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةَ فعِبَادَتُنَا إِيَّاهُم بمَشيئَتِهِ، فهُوَ رَاضٍ بِهَا...] إِلَى آخِرِهِ.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أيِ: الْمُشرِكُونَ ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾: ﴿لَوْ﴾ هَذِهِ حَرْفُ امتِنَاعٍ لامتِنَاعٍ ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ لكِنَّنَا عبدْنَاهُم لمَشيئَةِ اللهِ، والعَجَبُ أَنَّهُم قَالُوا: ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فإِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ الملَائِكَةَ فقَدْ تَنَاقَضُوا، وإِنْ كَانُوا يُرِيدُون الأَصنَامَ، فهَذَا لَهُ كَلامٌ آخرُ، إِذَا كَانُوا يُرِيدُونَ الملائِكَةَ فهُمْ قَالُوا: ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ مَعَ أَنَّهُم جعَلُوا الملَائِكَةَ إنَاثًا، وكَانَ مُقتَضَى ذَلِكَ أَنْ يقُولُوا: (مَا عبدْنَاهُنَّ) فيَرْجِعُ الضَّمِيرُ إِلَى الملائِكَةِ ضَمِيرَ مُؤنَّث، أَمَّا إِذَا كَانَ الْمُرادُ ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أَيْ: مَا عبدْنَا آلِهَتَنا؛ فَلَا إِشْكَالَ.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ القَوْلِ مِنَ الرِّضَا بعِبَادَتِها ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ﴾ أَيْ: مَا هُمْ ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يَكذِبُون فيَتَرَتَّب علَيهِمُ العِقَابُ بِهِمْ].

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ هُنَا تُعرَبُ زَائِدَةً إِعْرَابًا،

لكِنَّها فِي المَعْنَى مُفيدَةٌ، تُفِيدُ التَّوكِيدَ، ولَوْلَا القُرآنُ لكَانَ السِّياقُ: (مَا لَهُمْ بذَلِكَ عِلْمٌ)، لكِنْ تُزادُ الحُرُوفُ للتَّوكيدِ؛ لتَوكِيدِ النَّفي فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَعْنِي: أنَّ قَولَهُمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ قَولٌ مَبنِيٌّ عَلَى الخَرْصِ والظَّنِّ، والمُحَاجَّةِ بالبَاطِلِ، وإلَّا فهُمْ عَمِلُوا وعَبَدُوا بدُونِ أَنْ يَعلَمُوا أَنَّهُ مَكتُوبٌ علَيْهِمْ؛ لأَنَّهُ لَا يُعلَمُ المَكتُوب إلَّا إذَا وَقَعَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هؤُلَاءِ احتَجُّوا بالقَدَرِ فقَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بُطْلَانُ الاحتِجَاجِ بالقَدَرِ؛ لقَولِهِ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

وقَولُهُمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ صَحِيحٌ، لكِنَّ الاحتِجَاجَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، لَوْ شَاءَ الرَّحمنُ مَا عبَدُوهُم كقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣]، فهَذَا القَوْلُ صَحِيحٌ، لكِنَّ الاحتِجَاجَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، وإنَّما قُلْنا: إنَّهُ صَحِيحٌ؛ لأَنَّ اللهَ تعَالَى يَشَاءُ كُلَّ شَيْءٍ، كُل شَيْءٍ فهُوَ وَاقِعٌ بمَشيئَةِ اللهِ، لكِنْ لَا حُجَّةَ بشَيْءٍ لَا تَعْلَمُه أنْتَ؛ إذْ إنَّك لَا تَعْلَمُ أنَّ هَذَا مُقدَّرٌ عَلَيْكَ إلَّا إذَا وَقَعَ، فالقَدَرُ سِرٌّ مَكْتُومٌ لَا يُعلَم إلَّا إذَا وَقَعَ المَقْدُورُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ عَلَى القَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يُنكِرُون أنَّ اللهَ تعَالَى يَشَاءُ أفعَالَ العِبَادِ، فالقَدَرِيَّةُ -وهُمُ المُعتَزِلَةُ- يَقُولُون: إنَّ الإنسَانَ خَالِقُ عمَلِهِ، مُرِيدٌ لَهُ، مُستَقِلٌّ بِهِ، وأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا إرَادَةَ لَهُ بِهِ، سُبْحَانَ اللهِ! أيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] وتَقُولُون أنْتُم: لَا؟!

قابَلَهُم قَومٌ آخَرُون، وهُمُ الجَبْرِيَّةُ، وقَالُوا: كُلُّ شَيْءٍ وَاقِعٌ فهُوَ بمَشيئَةِ اللهِ، والإنسَانُ مُجبَرٌ عَلَى العَمَلِ ولَيْسَ مُختَارًا، وهَذَا أيضًا قولٌ باطِلٌ، وكلٌّ يَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ الفِعْلِ الاختِيَاريِّ وبيْنَ الفِعْلِ الاضْطِرَارِيِّ، فكُلٌّ يعرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَنْزِلَ الإنسَانُ مِنَ السَّطْحِ مِنْ عَلَى الدَّرَجِ شَيْئًا فشَيْئًا وبَيْنَ أَنْ يَتَدَحْرَجَ بدُونِ اختِيَارٍ مِنْهُ.

وهُمْ -أَعْنِي: الجَبريَّةَ- يَقُولُونَ: إنَّ الكُلَّ سَوَاءٌ، يَنْزِلُ باختِيَارٍ، أَوْ يَتدحْرَجُ بغَيْرِ اختيَارٍ، الكُلُّ سَوَاءٌ، ومَا حرَكَةُ الإنسَانِ إلَّا كحَرَكَةِ السَّعفةِ فِي الرِّيحِ.

وهَذَا أيضًا قَوْلٌ بَاطِلٌ، ولَا يُمكِنُ أَنْ تَقُومَ بِهِ أُمَّةٌ، ولَا أَنْ تَقُومَ بِهِ مِلَّةٌ، ولَا أَنْ تَقُومَ بِهِ دُنْيَا ولَا أُخْرَى، وإلَّا لقُلْنَا: كُلُّ إنسَانٍ يَتَسَلَّط عَلَى آخَرَ، ثُمَّ يَقُولُ: هَذَا بقَضَاءِ اللهِ وقدَرِهِ، مَا أَمْلِكُ، هَلْ يَرضَى هؤُلَاءِ أَنْ يَأتِيَ شَخْصٌ ويَرُضُّهم رَضًّا، ثُمَّ يقُولُ: هَذَا بقَدَرِ اللهِ؟

الجَوابُ: لَا أحَدَ يَرضَى بذَلِكَ، ولَمَّا أَمَرَ عُمرُ بْنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ تُقطَعَ يَدُ السَّارِقِ قَالَ: مَهْلًا يَا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ، واللهِ مَا سرَقْتُ إلَّا بقَدَرِ اللهِ. قَالَ: ونحْنُ لَا نَقْطَعُ يَدَكَ إلَّا بقَدَرِ اللهِ.

فكُلُّ إنسَانٍ يَعْرِفُ أَنَّ الإنسَانَ مُختَارٌ، ولَهُ إرادَةٌ تَامَّةٌ بِهَا يَفْعَلُ، لَوْ أَنَّنا قُلْنَا بقَوْلِ الجَبْرِيَّةِ لكَانَتْ عُقُوبَةُ اللهِ للمُجرِمِينَ ظُلْمًا؛ لأَنَّهُم سيَقُولُون: يَا رَبَّنا فعَلْنا هَذَا بغَيْرِ اختِيَارِنَا، والَّذِين يَقُولُون: إنَّ اللهَ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بفِعْلِ العَبْدِ فهُمْ أيضًا مُخطِئُون.

ولهَذَا يُسمَّى هؤُلَاءِ القدَرِيَّةُ مجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ لأَنَّهُم جعَلُوا للحوَادِثِ خالِقَيْنِ، حوَادِثُ بشَرِيَّة مِنْ خَلْقِ البشَرِ، وحوَادِثُ إلهيَّةٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فسُمُّوا مجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ؛ لأَنَّ المَجُوسَ يقُولُونَ: إنَّ الحوادِثَ لَهَا خَالِقَانِ: الشَّرُّ تَخْلُقه الظُّلْمَةُ،

والنُّورُ يَخْلُقُ الخَيْرَ، هذِهِ عَقِيدَةُ المَجُوس، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ المُتنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ:

وكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ   تُخَبِّرُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ[1]

ظَلَامُ اللَّيْلِ ظُلْمَةٌ، وَأَنْتَ أَيُّها المَمْدُوحُ لَكَ الْكَرَمُ فِي اللَّيلِ والنَّهارِ.

فقولُهُم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ صَحِيحٌ لكِنْ لَيْسَ حُجَّةً؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المُحتجَّ بالقَدَرِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ. وكَيْفَ لَا يَكُونُ عنْدَهُ عِلْمٌ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إنَّما وقَعَ بمَشِيئَةِ اللهِ؟

فالجَوابُ: هُوَ إنَّما عُلِمَ بعْدَ الوُقُوعِ، لكِنْ قَبْلَ الوُقُوعِ لَا يُعلَمُ؛ إِذَنْ لَا حُجَّةَ لَهُ؛ لأَنَّ الحُجَّةَ دَلِيلٌ، والدَّلِيلُ لَا بُدَّ أَنْ يَسبِقَ المَدلُولَ، فعِلْمُهُم لَاحِقٌ، ولَيْسَ بسَابِقٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ قَولَهُمْ هَذَا مَبنيٌّ عَلَى الكَذِبِ؛ لقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أَيْ: يَكْذِبُونَ. ولَنَا أَنْ نَقُولَ: ﴿يَخْرُصُونَ﴾ بمَعْنَى يَظُنُّون، كَما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤].



---

(١) ديوان المتنبي (ص:٤٦٦).

الآيــة (٢١)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف:٢١].

• ● ● •

ثُمَّ قَالَ الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القُرآنَ بعِبادَةِ غَيْرِ اللهِ ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾].

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: ﴿أَمْ﴾ بمَعْنَى (بَلْ)، وهمْزَةٍ للاستِفْهامِ، والمَعْنَى: بَلْ هَلْ نَحْنُ آتَيْناهُمْ كِتابًا مِنْ قَبلِ القُرْآنِ فهُمْ بِهِ مُستَمْسِكُون؟

الجَوابُ: لَا، لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ، فأَوَّلُ كِتابٍ نَزَلَ عَلَى العرَبِ هُوَ القُرآنُ، وهُوَ آخِرُ كِتَابٍ؛ لأَنَّه لَمْ يُبعَثْ مِنَ العرَبِ رَسُولٌ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، كَمَا قَالَ اللهُ فِي دُعَاءِ إبْراهِيمَ وإسماعِيلَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:١٢٩].

وهَـذا لَوْ قَالَ لنا قَائِلٌ: هَلْ فِي العرَبِ رَسُـولٌ سِوَى مُحمَّـدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لقُلْنَا: لَا، لَا يُوجَدُ إلَّا وَاحِدٌ.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؟

الجَوابُ: لَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تكرَارُ الحُجَجِ بقَدْرِ إنْكَارِ الخَصْمِ، وكُلَّما تكرَّرَتِ الحُجَجُ ازدَادَ الأَمْرُ قوَّةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّكَ إِذَا أَتيْتَ بدَلِيلٍ مُقنِعٍ فَلَا لَوْمَ عَلَيكَ، إِذَا أَتيْتَ بدَلِيلٍ آخَرَ وثَالِثٍ، مَا دَامَ المَقَامُ يَقْتَضِي ذَلِكَ، انْظُروا إِلَى الَّذِين يُجادِلُون أَهْلَ البَاطِلِ، وبالأَخَصِّ شَيْخُ الإِسلَامِ ابْنُ تَيمِيَّةَ وتِلميذُهُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ -كَيْفَ يَأْتُونَ بالأَدِلَّة مُتَتابِعَةً مُتَكَاثِرَةً مَعَ أَنَّ المَدلُولَ يُمكِنُ أَنْ يَثبُتَ بدَلِيلٍ وَاحِدٍ؟

والجَوابُ: أنَّ هَذا مِنْ أَجْلِ التَّقويةِ، شَيخُ الإِسلَامِ لَهُ كِتَابٌ اسْمُه (التِّسعينيَّة فِي الرَّدِّ عَلَى الأَشْعرِيَّة) الَّذِين قَالُوا: إنَّ الكَلَامَ هُوَ المعْنَى القَائِمِ بالنَّفسِ، أَبطَلَ رَحِمَهُٱللَّهُ هَذَا القَوْلَ مِنْ تِسعِينَ وَجْهًا، ويَكفِي فِي إبطَالِهِ وَجْهٌ واحِدٌ، يَعْنِي: كُلَّما تَكَرَّرتِ الأَدِلَّةُ قَوِيَتِ الحُجَّةُ.

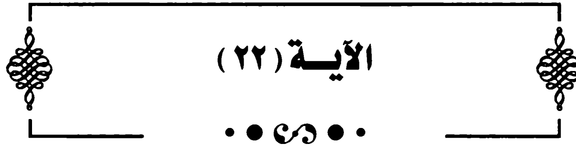
أرَأَيْتُمُ الْآنَ فِي الأُمُورِ المحسُوسَةِ لَوْ أَنَّ شَخصًا أَتَى وأَخبَرَكُمْ بخَبَرٍ وهُوَ ثِقَةٌ عِندَكُم صدَّقتُمُوه، فإِذَا جَاءَ آخَرُ ازدَادَتِ الثِّقَةُ، وإِذَا جَاءَ ثَالِثٌ ازدَادَتِ الثِّقَةُ؛ ولهَذَا قَالَ العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ: إنَّ المُتواتِرَ يُفِيدُ القَطْعَ؛ لكَثْرَةِ مَنْ رَوَاهُ، المُتواتِرُ يَعْنِي: الحَدِيثُ الَّذِي يَأْتِي مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَمْ يَنزِلْ عَلَى العَرَبِ كِتَابٌ سِوَى القُرْآنِ؛ لقَوْلِهِ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مِنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عَلَى العَرَبِ؛ حَيْثُ أَنْزَلَ عَلَيهِمْ كِتَابًا وَاحِدًا هِدَايةً للخَلْقِ أَجْمَعِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، بيْنَما الرُّسُلُ الآخَرُونَ تَنزِلُ عَلَيهِمُ الكُتُب

هدَايةً لأَقْوامِهِمْ، فهِيَ -أيِ: الكُتُبُ- هدَايَةٌ فِي قَوْمٍ مُعيَّنِينَ، وفِي وَقْتٍ مُعيَّنٍ، لكِنَّ هَذَا الكِتَابَ -جعَلَنِي اللهُ وإيَّاكُم مِنَ المُتمسِّكينَ بِهِ- نَازِلٌ صَالِحًا لكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ وأُمَّةٍ.





الآيــة (٢٢)

• • • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

• • • •

﴿بَلْ﴾ هَذِهِ للإِضْرَابِ، إضرَابُ انتِقَالٍ، يَعْنِي: انتَقَلُوا إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: عَلَى مِلَّةٍ، وإِنَّا مَاشُونَ عَلَى آثَارِهِمْ، مُهتَدُون بِهِمْ، وكَانُوا يَعبُدونَ غَيْرَ اللهِ.

هذِهِ حُجَّة مِنْ حُجَجِهِمْ، احتَجُّوا فِي الأَوَّلِ بالقَدَرِ، الْآنَ احتَجُّوا بالقُدوَةِ، قَالُوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ نتكَلَّمُ عَلَى مَعْنَى (أُمَّةٍ)، يَقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِلَّة] وقَدْ ذَكَرْنا قَرِيبًا أنَّ (أُمَّة) فِي القُرآنِ تَدُلُّ عَلَى عِدَّة معَانٍ:

١ ـ أنَّها تَكُونُ بمَعْنَى: إمَامٍ، مِثْلَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل:١٢٠].

٢ ـ تَكُونُ بمَعْنى: وَقْتٍ، كقَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

٣ ـ تكُونُ بمَعْنَى: طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ، كقَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾.

٤ ـ تكُونُ بمَعْنَى الدِّينِ، كقَولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: عَلَى مِلَّة.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الكلِمَاتُ الَّتِي تَأتِي لعِدَّةِ مَعَانٍ مَا الَّذِي يُعيِّن المَعْنَى؟

فالجَـوابُ: السِّياقُ، وقرَائِنُ الأحْوَالِ، إِذَا قُلْتَ لرَجُـلٍ غَنِيٍّ: الْبَسِ العَبَاءَةَ. ولرَجُلٍ فقِيرٍ: الْبَسْ عبَاءَةً. هَلْ تختَلِفُ العَبَاءَتَانِ؟ الأوَّلُ: الغَنِيُّ يَعْنِي: الْبَسْ عبَاءَةَ غَنِيٍّ، والثَّـانِي: الْبَسْ عبَاءَةَ فَقِيرٍ. اختلَفَ المَعْنَى لحَـالِ المُخَاطَبِ، فالمُهِمُّ أنَّ الَّذِي يُعيِّنُ المَعْنَى هُوَ السِّياقُ.

ومِنْ ثَمَّ قُلْنَا: إنَّهُ لا مجَازَ فِي اللُّغةِ العَربيَّةِ إطْلَاقًا، ولَا فِي الْقُرآنِ أيضًا، والمسألَةُ هَذِهِ فِيهَا أقْوَالٌ ثلَاثَةٌ:

القَولُ الأوَّلُ: أنَّ المجَـازَ وَاقِعٌ فِي اللُّغةِ العَربيَّـةِ والقُرآنِ، وهَـذَا الَّذِي عَلَيْهِ جُمهُورُ العُلماءِ.

القَولُ الثَّانِي: أنَّهُ وَاقِعٌ فِي اللُّغـةِ غَيْرُ وَاقِعٍ فِي القُرآنِ، اختَارَهُ طَائِفَـةٌ مِنْهُم: الشَّيخُ مُحمَّد الأَمِينُ الشِّنْقيطيُّ صاحِبُ كِتَابِ (أضوَاء البيَانِ).

القَوْلُ الثَّالثُ: منْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا مجَـازَ فِي القُرآنِ ولَا فِي اللُّغةِ. وهَذَا اختِيَارُ شَيْـخِ الإسلَامِ ابْنِ تَيمِيَّةَ[1] وتِلمِيـذِهِ ابْنِ القَيِّمِ[2] رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، وهَذَا هُـوَ الحَقُّ؛ لأَنَّ الكَلِمَةَ ليْسَ لَهَا معْـنًى ذَاتِيٌّ، الكلِمَةُ فِي ضِمْنِ جملَةٍ، فإِذَا دلَّتِ الكلِمَةُ في مَوْقِعٍ مَا عَلَى معْنًى مِنَ المعَانِي فهُـوَ الحقِيقَةُ، لَوْ قُلْتَ: رَأَيْتُ أَسَدًا يَحْمِـلُ الحَقِيبَةَ إِلَى المسْجِدِ ليَقْرَأَ، لَا يُمكِنُ أَنْ يَتبَادَرَ إِلَى ذِهْنِ واحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ المُرادَ بالأَسَدِ السَّبُعُ المعرُوفُ، بَلْ لَوِ ادَّعى هَذَا مُدَّعٍ لرَدَّ علَيْهِ كُلُّ أحَدٍ، فالَّذِي منَعَ هَذَا هُوَ السِّياقُ.

---

(١) انظر: كتاب الإيمان (ص:٧٣).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (ص:٢٨٧).

إذَن: الأَسَدُ هُنا حقِيقَةٌ فِي مَوضعِها، وهِيَ تَدُلُّ عَلَى الشَّجاعَةِ، فبَدَلًا مِنْ أَنْ أَقُولَ: رَأَيْتُ رَجُلًا شجَاعًا يَحمِلُ حَقيبَةً، أقُولُ: رأيْتُ أسَدًا.

وانتبِهُوا لهَذَا ففِيهِ فائِدَةٌ عظِيمَةٌ، وكثِيرًا ما يَحتَجُّ النَّاسُ فيَقُولُونَ: كَيفَ لَا يَكُونُ فِي القُرآنِ مجازٌ واللهُ يَقُولُ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧]، أَيْ: مَائِلًا، والجِدارُ لَيس لَهُ إرَادَةٌ؟

فالجَوابُ:

أوَّلًا: نَمْنَعُ قَولَكَ: الجِدَارُ لَيسَ لَهُ إرادَةٌ. بَلْ لَهُ إرادَةٌ، بِلَا شَكٍّ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤]، فهَذِهِ المخْلُوقَاتُ تُسبِّح بإرادَةٍ بِلَا شَكٍّ، وإلَّا لَمْ يكُنْ فِي هَذَا ثَنَاءٌ عَلَى اللهِ.

ثَانيًا: نَقُولُ: مَا الَّذِي يَمْنَع الإرادَةَ فِي الجَمادِ والنَّبيُّ ﷺ ثَبتَ عَنْهُ أنَّهُ قَالَ فِي أُحُدٍ، وهُوَ جَبَلُ حَصًى: «**جَبَلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ**»[1] فأَثْبتَ المَحبَّةَ لهَذَا الجَبَلِ، والمَحبَّةُ أَخَصُّ مِنَ الإرادَةِ.

ثَالِثًا: نَقُولُ: إرادَةُ كُلِّ شَيْءٍ بحَسَبِهِ، فمَيْلُ الجِدَارِ، يَعْنِي أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسقُط، كمَيْلِ الإنسَانِ، فنَعرِفُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْكَعَ مَثَلًا، ولَا مَانِعَ.

قَالُوا: إِذَنْ تَخَلَّصْتُم مِنْ هَذَا، فَما تَقُولُون فِي قَولِهِ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] المعْنَى: تَواضَعْ لهُما رحْمَةً بِهِما، فيَقُولُون: الذُّلُّ هَلْ لَهُ جَناحٌ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فنَقُولُ: أمَّا الذُّلُّ فهُوَ أمْرٌ مَعنَوِيٌّ، والإنسَانُ إذَا لَمْ يَذِلَّ ترفَّع وعَلَا بنَفْسِهِ، فقَالَ: اخفِضْ جَنَاحَ الذُّلِّ، بدَلَ جَنَاحِ التَّرفُّعِ، وذَكَرَ الجَنَاحَ؛ لأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَطِيرُ بِهِ الطَّيْرُ إِلَى السَّماءِ، فالْآيَـةُ واضِحَةٌ أَنَّ المعْنَى تطَامَن للوَالِدِينِ، وتَذَلَّلْ لهُما، واخفِضْ لهُما الجَنَاحَ، وهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ التَّذلُّلِ لهُما.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا المَحْذُورُ الشَّرعيُّ فِي إثبَاتِ المجَازِ إِذَا قُلْنَا بالمجَازِ؟

فالجَوابُ:

أوَّلُ محْذُورٍ: أنَّ المجَازَ باتِّفاقِ القَائِلِينَ بِهِ يَصِحُّ نَفْيُهُ، وهَذَا يَعْنِي: أَنَّهُ يَصِحُّ تكـذِيبُ القُرآنِ، فيَقُـولُ مَثَلًا: (﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ الجِـدَارُ لَيْس لَهُ إرادَةٌ)، وهَـذَا لَا يَصِحُّ؛ ولهَذَا اعتَمَدَ الشِّنْقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هذِهِ الحُجَّةَ اعتِمادًا قوِيًّا، قَالَ: أبرَزُ عَلامَاتِ المَجَازِ أَنَّهُ يَصِحُّ نفْيُه، وليْسَ فِي القُرآنِ شَيْءٌ يَصِحُّ نفْيُه[1].

ثانيًا: أنَّ هَذَا المجَازَ الَّذِي سَمَّاهُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ[2] طَاغُوتًا توصَّلوا بِهِ إِلَى إنْكَارِ الصِّفاتِ، وقَالُوا: اليَدُ مجَازٌ عَنِ النِّعمَةِ، والاستِوَاءُ مجازٌ عَنِ الاستِيلَاءِ، والعَيْنُ مجازٌ عَنِ الإحَاطَةِ، وهَلُمَّ جرًّا، ومَنْ قَالَ: إنَّ شيْخَ الإسلَامِ وابْنَ القَيِّم أَنْكَرَا ذَلِكَ -وشـدَّدَا فِي الإنكَارِ- لأَنَّ أهْلَ التَّعـطِيل توصَّلُوا بالمجَازِ إِلَى إنكَارِ الصِّفـاتِ-، فهَذَا كذِبٌ علَيْهِما، بَلْ هُمَا أَنكَرَاه مُطْلَقًا حتَّى فِي أَبْسَطِ الأشيَاءِ.

فإِنْ قَـالَ قَائِلٌ: مَا الرَّدُّ عَلَى القَائِلِينَ بأَنَّ المجَـازَ يَدُلُّ عَلَى فصَاحَتِهِ وإعْجَـازِ القُرآنِ؟

فالجَوابُ: هَذَا غلَطٌ، كيْفَ يَدُلُّ عَلَى فصَاحَتِهِ وهُوَ يَصِحُّ أَنْ يُنفَى ويُكذَّبَ.

---

(١) انظر: منع جواز المجاز (ص:٧).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (ص:٢٨٥).

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي كِتَابِ (فتْح رَبِّ البَرِيَّةِ) كأَنَّهُ يُفهَمُ مِنَ الكَلَامِ إثبَاتُ أصْلِ المَجَازِ؛ لأَنَّكَ قُلْتَ: المعْنَى المجَازِيُّ لا يُقبَل إلَّا بثَلاثَةِ شُرُوطٍ، ومِنْ حُجَجِ الَّذِين يُثبِتُونَ المجَازَ يَقُولُون: إنَّ القُرآنَ جَاءَ عَلَى أَسَالِيبِ اللُّغةِ، فاللُّغةُ فِيهَا مجَازٌ، فمِنْ إعجَازِ القُرآنِ لَمْ يَخرُجْ عَنْ أسَالِيبِ اللُّغةِ؟

فالجَوابُ: نحْنُ نَقُولُ: اللُّغةُ لَيْسَ فِيهَا مجَازٌ أصْلًا. يَعْنِي: نُنْكِرُ الأصْلَ، فنَقُول: اللُّغةُ لَيْسَ فِيهَا مجَازٌ.

ومَا كتبْنَاهُ أوَّلًا فِي أُصُولِ الفِقْهِ حيْثُ ذكَرْنا المجَازَ، فإنَّنَا مَاشُونَ عَلَى خُطَّة رُسمِتْ لَنَا مِنْ قِبَلِ المَعَاهِدِ، ولَيْسَ عَنِ اعتِقَادٍ مِنَّا، ولقَدْ نَبَّهنَاهُم بأنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكتُبوا حاشِيَةً عَلَى هَذَا فتَقُولُوا: هَذَا عَلَى القَوْلِ بالمجَازِ، وأنَّنا لَا نَرَى ذَلِكَ.



الآيــة (٢٣)

• • ◦ • •

ﷺ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

• • ◦ • •

يَعْنِي: مِثْلُ هَذَا الَّذِي قِيل لَكَ قِيلَ لِمَنْ قَبلَكَ: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ والحِكْمَة مِنْ هَذَا تَسليَةُ النَّبيِّ ﷺ مِنْ وَجْهٍ، وإنذَارُ هؤُلَاء المُكذِّبينَ لَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وأنَّه سيُصِيبُهم مَا أَصَابَ غيرَهُم ممَّا أَصَرُّوا عَلَى تقْلِيدِ آبائِهِم البَاطِلَ.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: مُنَعَّمُوها مِثْـلَ قَوْلِ قَومِـكَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ مُتَّبِعُون].

الحِكمَةُ مِنْهُ هُوَ تَسلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ، وإنذَارُ هَؤُلاءِ المُكَذِّبين أنَّ جمِيعَ الأُمَم السَّابِقَةِ يَقُـولُونَ لأقَوامِهِمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: عَلَى مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أَيْ: مَا يَسيرُون عَلَيْه مِنَ الدِّينِ ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ أَيْ: مُتَّبِعُون مُقلِّدونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَسليَةُ النَّبيِّ ﷺ بأنَّ هَذَا الَّذِي قِيلَ لَهُ قَدْ قِيلَ لِمَنْ قبْلَهُ، كقَولِهِ تعَالَى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت:٤٣].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: اتِّفَاقُ أَهْلِ البَاطِلِ عَلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ، أَلَا وَهُوَ تَكْذِيبُ الرُّسلِ، واتِّبَاعُ آبَائِهِمْ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحرِيمُ التَّقلِيدِ بالبَاطِلِ، وأمَّا التَّقلِيدُ بالحَقِّ فَلَا بَأْسَ بِهِ، فإِذَا كَانَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ حُكْمَ مَسأَلَةٍ فِي دِينِ اللهِ، ولَيْسَ عنْدَهُ قُدرَةٌ عَلَى الاجتِهَادِ، فإِنَّ فَرْضَهُ التَّقلِيدُ؛ لقَولِ اللهِ تعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]؛ ولقَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ ولقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

وأمَّا مَنْ حرَّمَ التَّقلِيدَ مُطلَقًا فقولُهُ بَاطِلٌ مُخالِفٌ لظَاهِرِ القُرآنِ، وأمَّا مَنْ أَلْزَمَ بِهِ مُطْلقًا فقولُهُ بَاطِلٌ مُخالِفٌ لِمَا يَجِبُ الإيمَانُ بِهِ مِنِ اتِّباعِ الرُّسُلِ.

فالصَّوابُ: أنَّ التَّقلِيدَ للضَّرُورَة جَائِزٌ؛ ولهذَا قَالَ شيْخُ الإسلَامِ ابْنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّقلِيدُ بمَنزِلَةِ أَكْلِ المَيتَةِ، إنِ اضطُرَّ إنسَانٌ إِلَيْهِ فهُوَ جَائِزٌ، وإِلَّا فَلَا»(١).

ولكِنْ لَا يُمكِنُ أَنْ نَقُولَ للعَامِّيِّ صَاحِبِ السُّوقِ: اجْتَهِدْ فِي هذِهِ المسأَلَةِ حتَّى تَعرِفَ حُكْمَ اللهِ، ولَوْ بَقِي يَجْتَهِدُ لخبَّطَ، لكِنَّ فرضَهُ أَنْ يَسْأَلَ.

فإِنْ قالَ قائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ التَّقلِيدُ فِي أُصُولِ الدِّين، أَوْ فِي فُرُوعِ الدِّينِ فَقَطْ؟

فالجَوابُ: أوَّلًا تَقْسِيمُ الدِّين إِلَى أُصُولٍ وفُرُوعٍ حَادِثٌ لَمْ يَكُنْ مَعرُوفًا فِي عهْدِ الصَّحابَةِ، ويَدُلُّ عَلَى بُطلَانِهِ أَنَّهُم يَجعَلُونَ الصَّلاةَ والزَّكاةَ والصِّيامَ والحَجَّ مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ، مَعَ أَنَّهَا أركَانُ الإسلَامِ، فالصَّوابُ: أنَّ الشَّرعَ لَا يَنْقَسِمُ إِلَى أُصُولٍ وفُرُوعٍ، وأنَّ هَذَا اصطِلَاحٌ حادِثٌ، لكنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أُصُولٍ عِلميَّةٍ، وأُصُولٍ عَمَليَّةٍ،

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٣-٢٠٤)، وإعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ١٨٥).

فالأُصُولُ العِلميَـةُ هُوَ الاعتِقَادَاتُ، والعمَليَّةُ هُوَ العِبَادَاتُ المُكلَّف بِهَا، هَـذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ النَّصُّ.

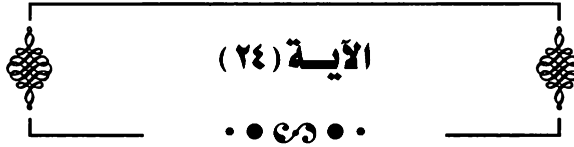
إِذَنْ نَقُولُ: قَولُنا: هَلْ يَجُوزُ التَّقليدُ فِي أُصُولِ الدِّينِ وفُرُوعِهِ، أَوْ فِي فُرُوعِـهِ فَقَطْ؟ أَصْلُ التَّقسيمِ حَـادِثٌ مُبتَدَعٌ، ولَوْ كَانَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ العُلَماءِ الْآنَ، وَهُـوَ أَيْضا غَيْرُ صَحِيح. وَجْهُ بُطَلانِهِ أَنَّهُ جَعَل الصَّلاةَ والزَّكاةَ والصِّيامَ والحَجَّ مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ وهِيَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ أَرْكَانِ الإسلَامِ.

ثُمَّ نَقُولُ: التَّقليـدُ فِيمَا تُسمِّيه أَصْلَ الدِّينِ وفُرُوعَـه جائِزٌ، قَالَ تعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، والرِّسالَةُ عَلَى تَقْسِيم هـؤُلاءِ إِلَى أُصُول وفُرُوعٍ مِنَ الأُصُولِ، ومَعَ هَذَا يَقُولُ - جَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ اسْأَلُوا: هَلْ أَرْسَلْنا رِجَالًا، أَوْ أَرسَلْنا مَلَائِكَةً، ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

والقَاعِدَةُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ عَجزَ أَنْ يُدرِكَ الحَقَّ بنفسِهِ وَجَبَ علَيْهِ التَّقلِيدُ، سَوَاءٌ فِي الأُمُورِ العِلميَّةِ أَوِ العمَليَّةِ، لَا فَرْقَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هؤُلَاءِ القَوْمَ المُكذِّبينَ للرُّسلِ لَيْسَ عنْدَهُم حُجَّةٌ إِلَّا مُجرَّد مَا كَانَ عَلَيْهِ الآبَاءُ، وهَذَا لَيْسَ بِحُجَّة، وعَلَى هَذَا فلَا يَجُوزُ الاحتِجَاجُ بعَمَلِ النَّاسِ، كَما يَفْعَـلُهُ بعضُ القَـومِ، فإِذَا نُهيتَ عَنْ شَيْءٍ يَفعـلُهُ كُلُّ النَّاسِ فهَذَا لَيْسَ بِحُجَّـةٍ، ولَا يُمكِنُ أَنْ تُقـابِلَ اللهَ بهَذِهِ الحُجَّـةِ، كُلُّ النَّاسِ يَفعَلُون هَذَا، فهَـذَا لَا يُمكِنُ أَنْ يَنْفَعَكَ عنْدَ اللهِ، قُلْ: هَذَا دَلَّ الكِتَابُ أَوِ السُّنَّة عَلَى جوازِهِ.

• • ۞ • •



الآية (٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف:٢٤].



قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَٰلَ﴾ أَيْ: لَهُمْ ﴿أَوَلَوْ﴾ تَتَّبِعُونَ ذَلِكَ ﴿جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أَنْتَ وَمَنْ قَبْلَكَ ﴿كَٰفِرُونَ﴾].

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾: ﴿قَٰلَ﴾ أيِ: الرَّسُول الَّذِي يُرسِلُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ويُقابَل بأَنَّهُم وجَدُوا آباءَهُم عَلَى أُمَّةٍ، ﴿قَٰلَ﴾ لَهُمْ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ يَعْنِي: أَتَرُدُّون قَولِي وتَتَّبِعُون مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكم ولَوْ جِئْتُكم بأَهْدَى مِنْهُ؟! والاستِفْهَامُ هُنَا وَاضِحٌ أَنَّهُ للإنكَارِ والتَّوبِيخِ. يَعْنِي: كَيْفَ تَتَّبِعُون مَا عَلَيْهِ آبَاؤُكم، وأَنَا قَدْ جِئْتُكم بأَهْدَى؟! ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ وَهُوَ شَرْعُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَمَعَ هَذَا فالرَّدُّ وَاحِدٌ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ العِنادِ، يَعْنِي: حتَّى ولَوْ جِئْتَنا بأَهْدَى ممَّا وجَدْنا عَلَيْهِ آبَاءَنا فإِنَّا كافِرُون، ولَا نَقُولُ كَمَا قُلْنَا أَوَّلًا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ بَلْ نَقُولُ: كَافِرُون مُطْلَقًا، وهَذَا أبلَغُ مَا يَكُونُ فِي العِنادِ -نَسأَلُ اللهَ العَافِيةَ- وهَذَا كقَولِ الَّذِين استَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيَانُ معَالجَةِ الرُّسلِ عليْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ للمُكذِّبين، أنَّهُم يُدْلُون عليهِمْ بالحُججِ المُقنِعة، ولكِنْ الكَافِرُون يُعانِدُون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جوَازُ التَّفضِيل بَيْنَ شَيْئَين قَدْ لَا يَكُونُ فِي الطَّرفِ الآخرِ شَيْءٌ مِنَ المعْنَى؛ لقَولِهِ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾: ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ اسْمُ تَفْضِيلٍ، ومَعَ ذَلِكَ فإِنَّا نَقُولُ: مَا وجَدُوا علَيْهِ آباءَهُمْ لَيْسَ فِيهِ هُدًى؛ لكنَّ التَّنزُّلَ مَعَ الخَصْمِ لَا بَأْسَ بِهِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الطَّرَفِ الآخَرِ شَيْءٌ.

وانْظُرْ إِلَى قوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هَذِهِ الأَصْنَامَ، وهَلْ فِي الأصنامِ خيرٌ؟

لَا، لكِنْ مِنْ أَجْلِ مُجَادَلَةِ الخَصْمِ نَقُولُ لَهُم: هَلِ اللهُ خَيْرٌ أَمْ آلهتُكَ، وإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ آلهَتَهُ لَيْسَ فِيهَا خَيْرٌ؛ فهُنَا قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ نَعلَمُ أنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ آباؤُهُمْ لَيْسَ فِيهِ هُدًى، بَلْ هُوَ ضَلَالٌ، ولكنَّنَا نُخاطِبُ مَنْ يَرَى أَنَّهُ هُدًى، فنُخاطِبُهُ عَلَى قَدْرِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الفَهْمِ.

ومِنْ ذَلِكَ مَا يَستَعْمِلُهُ شَيْخُ الإسلَام ابْنُ تيمِيَّةَ وغَيْرُه مِنَ العُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي مُجادَلَةِ أَهْلِ الكَلَامِ؛ حيْثُ يَتمشَّى فِيمَا يُجادِلُهم بِهِ عَلَى حسَبِ اصطِلَاحِهِمْ وإِنْ كَانَ يُنكِر أصْلَ مَا هُمْ عَلَيْه، لكِنَّ المُجادَلَةَ مَعَ الخَصْمِ لَا بَأْسَ أَنْ ينزِلَ الإنسَانُ عَلَى حسَبِ فَهْمِ الخَصْمِ حتَّى يَكونَ ذَلِكَ أبلَغَ فِي الاحتِجَاجِ عَلَيْهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أُولئِكَ المُعانِدِينَ الَّذِين يَتَّبِعُون مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آباءَهُمْ لَيْسَ عنْدَهُم نِيَّةٌ فِي أَنْ يُؤمِنُوا؛ لأَنَّهُم لَمَّا غُلِبُوا فِي الحُجَّةِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ

كَفِرُونَ﴾ يَعْنِي: لَنْ نُؤمِنَ، مهْمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الحُجَّة فلَنْ نُؤمِنَ، وهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الاستِكْبَارِ عَنِ الحَقِّ.



الآيــة (٢٥)

• • ◆ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف:٢٥].

• • ◆ • •

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أَيْ: أَنزَلْنـا بِهِمُ النِّقمَةَ، وهِيَ العُـقُوبةُ، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ انظُرْ يا مُحمَّـدُ، أَوِ انظُرْ أَيُّها المخَـاطَبُ كيفَ كَانَ عاقِبَةُ المُكذِّبينَ، إِذَا نظَرْنَا وَجَدْنا العَاقِبَةَ الهلاكَ والدَّمارَ، فلْنَعتبِرْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ قُدرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأَنَّهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يُملِي للظَّالِمِ حتَّى إِذَا أَخذَهُ لَمْ يُفلِتْه، فإِنَّ اللهَ قَـادِرٌ عَلَى أَنْ يَنتَقِمَ منِهُمْ بأَوَّلِ مَرَّةٍ، لكِنْ يُملِي للظَّالِمِ، فإِذَا أَخذَهُ أَخذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقتَدِرٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الأمْرُ بالاعتِبَارِ والنَّظرِ فِي الأُمُورِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ والنَّظرُ هُنَا نظَرُ قَلْبٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ عاقِبَةَ المُكذِّبينَ الهَلاكُ والدَّمارُ؛ لأَنَّ اللهَ أَهْلَكَ كُلَّ المُكذِّبينَ، أَهْلَكَ قَـوْمَ نُوحٍ، وقَوْمَ هُودٍ، وقَـوْمَ صَالِحٍ، وقَوْمَ لُوْطٍ، وفِرعَونَ، كُلُّ المُكـذِّبينَ أهلكَـهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكنَّ هَـذِهِ الأُمَّةَ -ولله الحمْدُ- جعَـلَ اللهُ هلاكَ عَدُوِّهَا عَلَى يَدِهَا، وذَلِكَ بالحُرُوبِ؛ لأَنَّ هلاكَ عَدُوِّك عَلَى يَدِكَ أَشْفَى للقَلْبِ مِنْ هَلاكِهِ

بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولهَذَا كَانَ هلاكُ المُكذِّبين للرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَيْدِيهِمْ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤-١٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجُوبُ النَّظَرِ والاعتِبَارِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ عَاقِبَةَ المُكذِّبِينَ للرُّسلِ هِيَ الهَلاكُ والدَّمارُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: هَـذِهِ الأُمَّةِ مِنْ تَكذِيبِ رَسُولِها أَنْ يُصيبَهُم مَا أَصَابَ غَيرَهُمْ.



الآيتان (٢٦، ٢٧)

• • ❀ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

• • ❀ • •

﴿وَإِذْ﴾ مَفعُولٌ لِفِعْـلٍ مَحْذُوفٍ، التَّقـدِيرُ: واذْكُرْ إِذْ قَـالَ إِبْرَاهِيمُ، وإِنَّمَا ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ لأَنَّ إبراهِيمَ تَنتَمِي إِلَيْهِ جَمِيعُ الأُمَمِ، اليَهودُ قَالُوا: إِنَّهُ يَهودِيٌّ. والنَّصارَى قَالُوا: إِنَّه نَصرَانيٌّ. والعَرَبُ قَالُوا: إِنَّهُم مُتَّبِعُون مِلَّته. فأَرَادَ اللهُ أَنْ يُبيِّن أنَّ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بَرِيئًا مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ التَّقدِيرُ: واذْكُرْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ، إبرَاهِيمُ الخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ إِمَامُ الحُنَفَاءِ الَّذِي قَالَ اللهُ تعالَى فِيهِ لنَبيِّهِ مُحمَّدٍ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

وكَانَ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كغَيرِهِ مِنَ الأنبِيَاءِ بُعِثَ إِلَى قَومِهِ خَاصَّةً، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي مِنْهَا: وَكَانَ النَّبيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١).

وقولُه: ﴿لِأَبِيهِ﴾ وهُوَ آزَرُ ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الَّذِين أُرسِلَ إِلَيْهِمْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقَدْ ذَكَرَ اللهُ مُحاجَّةَ إبراهِيمَ لأَبيهِ فِي سُورَةِ مَرْيمَ عَلَى وَجْهٍ مَبسُوطٍ، وفِي غَيرِهَا عَلَى وَجْهٍ مُختصَرٍ أحيانًا، ومُتوسِّطٍ أحيانًا، فجَرَتْ مُحاورَةٌ بينَهُ وبَيْنَ أَبيهِ فِي سُورَةِ مَرْيَم فقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ إنْ دعوتَهُ لَمْ يسمَعْكَ، وإنْ وَافقْتَهُ لَمْ يَرَكَ، وإنِ استعَنْتَ بِهِ لَمْ ينفَعْكَ، ولَا يُغنِي عنكَ شَيْئًا ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤١-٤٣].

والخِطَابُ الْآنَ مَبنِيٌّ عَلَى التَّرقِيقِ، والتَّلطِيفِ، والتَّنزُّل أَمَامَ الأَبِ؛ قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: يا أَبَتِي إنَّك جاهِلٌ وأنَا عالِمٌ، بَلْ قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ وهَذَا مِنْ أَدَبِهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقَد جَاءَهُ مِنَ العِلْمِ الوَحْيُ وأَبُوهُ لَيْسَ كذَلِكَ، جَاءَهُ مِنَ العِلْمِ التَّوحِيدُ وأَبُوه لَيْسَ كذَلِكَ.

فقَالَ: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ الولَدُ يَقُولُ لأَبيهِ: (اتَّبِعْنِي)؛ لأَنَّ الابْنَ معَهُ حَقٌّ، والأَبُ لَيْسَ كذَلِكَ ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم:٤٣-٤٤] ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يَعْنِي: عِبَادَةَ الطَّاعَةِ، وكُلُّ مَنْ أَطَاعَ شَيْئًا فقَدْ عبَدَهُ عَلَى حَسَبِ الحَالِ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أَيْ: عَاصِيًا ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم:٤٥]، أَيْ: يُصيبَكَ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم:٤٥]، فجعَلَ وَلايتَهُ للشَّيطَانِ مِنَ العذَابِ؛ لأَنَّ إعْرَاضَ الإنسَانِ عَنِ الحَقِّ مُصيبَةٌ ببعْضِ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

نحْنُ نظُنُّ أنَّ العُقوبَاتِ هِيَ البَلاءُ يَنْزِل بالإنسَانِ مِنْ مرَضٍ وفَقْرٍ، ومَا أَشْبَهَ

ذَلِكَ، وهَذَا -حَقًّا- عُقُـوبةٌ، ولكِنْ هُناكَ عُقوبةٌ أَشَدُّ وهِيَ الإعْرَاضُ عَنِ الحَقِّ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ هَـذَا أعظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ البَلَاءِ الحِسِّيِّ الجَسَدِيِّ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم:٤٥] كَانَ جَـوَابُ الأَبِ جوابًا قَـاسِيًا: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم:٤٦]، أَنكرَ عليْـهِ الرَّغبَةَ.

ولهَذَا قَالَ أهْلُ البلَاغَةِ: الَّذِي يَلِي همْزَةَ الاستِفْـهَامِ هُوَ المُنكَر، يَعْنِي: لَمْ يقُلْ: يَا إبراهِيمُ أَرَاغِبٌ. بَلْ بَـدَأَ بالإنكَارِ عَلَى الطَّريقَةِ، قَالَ: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وهَذَا استِفهَامُ إنكَارٍ وتَوبيخٍ.

ثُم قَالَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ يَعْنِي: عَنْ دعوَتِك إيَّايَ عَنِ التَّوحيدِ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وعيْدٌ يَقُولُه الأَبُ لابْنِهِ، وابنُه يَتَرَقَّقُ لَهُ، ويَتحنَّن إِلَيْهِ بقَولِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وهَذَا جَوابُ الأَبِ.

وهَذَا القَولُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قَالَهُ أيضًا غيرُهُ مِنَ المُكذِّبينَ للرُّسُلِ؛ فِرعَونُ قَالَ لمُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

ثُم قَالَ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]، يَعْنِي: اتْرُكْنِي ﴿مَلِيًّا﴾ أَيْ: زَمَنًا طَويلًا، يَعْنِي: يَقُولُ: دَعْنِي عَلَى مَا أَنَا عليْهِ ولَا تُكلِّمْني، قَالَ: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم:٤٧] هذِهِ النِّهايَةُ مِنْ إبراهِيمَ، فَما أَحلَمَهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ! ولهَذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]، قَالَ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، فاستَغْفَرَ لَهُ حتَّى نَهَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا: أَنَّ أَبَا إبراهِيمَ كَانَ مُشرِكًا اسْمُه آزرُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام:٧٤]، العجَبُ أَنَّ بعْضَ النَّاسِ

-نَسأَلُ اللهَ العافيَةَ- حَرَّف كلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَمَّا أَرَادَ اللهُ؛ بِناءً عَلَى هَوَاهُ، فقَالَ: أَبُو إبراهِيمَ لَيْسَ مُشرِكًا، بَلْ هُوَ عَلَى التَّوحِيدِ، ولَا يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ أَبُو النَّبيِّ مُشرِكًا وآزَرُ هُوَ عمُّه ولَيْسَ أَبَاهُ، فانْظُرْ كَيْفَ الهَوَى! ومَنْ قَالَ فِي القُرآنِ برَأْيِهِ فلْيَتَبَوَّأْ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فكَيْفَ نَقُولُ: لَيْسَ أباهُ، وهُوَ عَمُّهُ، واللهُ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ كيْفَ نَقُولُ: إنَّهُ عَمُّه. وهُوَ يقُولَ: يَا أَبَتِي؟!

أمَا يَستَحِي قَائِلُ هَذَا القَوْلِ! أمَا يَتَّقِي اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بتَحرِيفِ الكَلِمِ عَنْ مَواضِعِه؛ بِناءً عَلَى عقِيدَةٍ فاسِدَةٍ أنَّ أَبَا الرَّسُولِ لَا يُمكِن أَنْ يَكُون كَافِرًا!

ونَقُولُ: سبْحَانَ اللهِ! تَأَمَّلُوا كَوْنَ أَبِي الرَّسُولِ كَافِرًا وابْنُه نَبيٌّ -أعظَمُ دَلِيلٍ عَلَى قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَنَّه يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّت، وأَنَّ النَّسبَ لَا يَنْفَعُ أصحَابَهُ.

واللهِ لَو قُلْنَا هَذَا لِعَجُوزٍ مِنْ عَجائِزِ المُسلمِينَ: إنَّ آزَرَ عَمُّ إبراهِيمَ ولَيْسَ أبَاهُ. لانْتَقَدْنا، بَلَ نَقُولُ: أَبُو إبراهِيمَ كَافِرٌ، وأَبُو مُحَمَّدٍ كَافرٌ، ومَاذَا يَضُرُّ النَّبيَّ ﷺ إِذَا كَانَ أَبُوهُ كَافِرًا؟ لا يَضُرُّه شَيْئًا، بَلْ هَذَا أكبَرُ دَلِيلٍ عَلَى كَمَالِ قُدرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأَنَّه يُخرِجُ الأنبياءَ مِنْ أصْلَاب هؤُلَاءِ الكُفَّارِ، لكِنْ -الحمدُ للهِ- لَمْ يَخْرُجْ نبيٌّ أبَدًا مِنْ سِفَاحٍ.

أَمَّا مَسأَلَةُ الكُفْر والإِيمَانِ فهَذَا لَا يُعَدُّ انتِهاكًا لأعْرَاضِ الأنبِيَاءِ.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لأَبِيهِ صَرَاحَةً وقَالَ لقَوْمِهِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ والجُملَةُ هذِهِ مُؤَكَّدةٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بـ(إِنَّ)، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَرَآءٌ﴾ بَرِيءٌ] وهَذَا نَقْصٌ مِنَ المُفسِّر؛ لأنَّ (بَراءٌ) صِفَةٌ مُشبَّهة، وبَرِيءٌ اسْمُ فَاعِلٍ، والصِّفَةُ المُشبَّهة أَعظَمُ؛ لأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الدَّوامِ والثَّباتِ والاستِمْرَار، فـ(بَراءٌ) أعظَمُ مِنْ (بَرِيءٍ)، و(براءٌ) يَعْنِي: صِفَةُ البَرَاءَةِ، الصِّفةُ الدَّائِمَةُ الثَّابِتَةُ المُستمِرَّةُ، البَراءُ مِمَّا أَنْتُم عَلَيْهِ.

وقَولُه: ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ أَيْ: مِنَ الَّذِي تعبُدُونَهُ.

وقولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ والمُرَادُ بالَّذِي يَعبُدُونه: الأصنَامُ الَّتِي يَنحِتُونَها هُمْ بأيدِيهِمْ، ثُمَّ يَعبُدُونَها؛ ولهَذَا قَالَ لَهُمْ إبراهِيمُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فِي جُملَةِ مُنَاظَرَاتِهِ: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]، فكَيْفَ تَعبُدُونَها وهِيَ مخلُوقَةٌ؟! كَيْفَ تَعبُدُونَها وأَنْتُمُ الَّذِين تَنحِتُونَها؟!

وقَولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: ﴿إِلَّا﴾ أَدَاةُ استِثْنَاءٍ، لكِنْ هَلِ الاستثْنَاءُ هُنَا مُنقطِعٌ أَوْ هُوَ مُتَّصِلٌ؟

الجَوابُ: إِنْ كَانُوا يَعبُدُونَ اللهَ وغيرَهُ فالاستِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ، وإِنْ كَانُوا لَا يَعبُدونَ اللهَ فالاستِثْنَاءُ مُنقطِعٌ، والاستِثْنَاءُ المُنقَطِعُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَا بعْدَ (إلَّا) مِنْ غَيرِ جِنْسِ الَّذِي قبلَهَا، ومثَّلَ لَهُ النَّحويُّون بقَولِهِمْ: (جَاءَ القَومُ إلَّا حمَارًا). والحمَارُ مِنْ غَيرِ جِنْسِ القَومِ، فيَكُون الاستِثْنَاءُ مُنقطِعًا، أَمَّا إِذَا قِيلَ: (جَاءَ القَومُ إلَّا زيدًا). فالاستِثْنَاءُ هُنَا مُتَّصِلٌ؛ لأَنَّ زيدًا مِنْ جِنْسِ المُستثنَى مِنْهُ.

ونُطبِّقُ مَا هُنا عَلَى القَاعِدَةِ، فقَولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ إِنْ كَانُوا يَعبُدُونَ اللهَ وغَيرَهُ فالاستِثْنَاءُ هُنَا مُتَّصِلٌ، وإِنْ كَانُوا لَا يَعبُدُونَ اللهَ فالاستِثْنَاءُ مُنقطِعٌ.

وقَولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لَمْ يَقُلْ: إلَّا اللهُ. مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقِيمَ الدَّليلَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَستحِقُّ العِبَادَةَ إلَّا هُوَ، فالَّذِي فطَرَكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وأَوْجدَكَ مِنَ العَدَمِ هُوَ الَّذِي يَستَحِقُّ أَنْ يُعبَدَ؛ لأَنَّهُ الَّذِي خلَقَكَ، يَعْنِي: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لمَاذَا لَمْ يَقُلْ: إلَّا اللهُ؟

فالجَوابُ: ليُقِيمَ الحُجَّة عَلَى أَنَّه لَا يَنبَغِي أَنْ يُعبَدَ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهَذَا كقَولِهِ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، ومَعلُومٌ أَنَّ الرَّبَّ خَالِقٌ،

لكِنَّهُ أَتى بقَولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وهُوَ معْلُومٌ؛ ليُقِيمَ الحُجَّةَ عَلَى أَنَّه المُستحِقُّ للعِبَادَةِ وَحْدَهُ.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ خلَقَنِي ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ سَيُرشِدُني لدِينِهِ] والهِدَايَةُ نوعَانِ كَما سيأتِي إِنْ شَاءَ اللهُ فِي بَيَانِ الفَوائِدِ.



الآيـة (٢٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨].

قَالَ تعالَى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: كلِمَةَ التَّوحِيدِ المَفهُومةَ مِنْ قَولِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]].

وقَولُهُ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضَّميرُ يَعُودُ علَى الكلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هِيَ قَولُهُ: [﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾]، وهَذَا غَلَطٌ مِنَ المفسِّر، فالكلِمَةُ الَّتِي قَالَهَا هِيَ أَقْرَبُ كلِمَـةٍ وَهِيَ: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وهِيَ كَلِمَةُ التَّوحِيدِ، أمَّا قَولُهُ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فَلَا عَلَاقَةَ لَهُ فِي الآيَة.

إِذَنْ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضَّميرُ عَائِدٌ علَى الكلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا، وهِيَ ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

ومعْـنَى قَولِهِ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: صيَّرها هِيَ الطَّريقَـةَ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيهَا مَنْ بَعْـدَهُ، ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ عَقِبَ إبراهِيمَ، قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مَنْ يُوحِّـدُ الله] هَكَذَا قَالَ المفسِّر أنَّ المَعْنَى: أنَّ هَـذِهِ الكلِمَةَ ستَبْقَى فِي ذُرِّيَّتِهِ، ولَا يُمكِنُ أَنْ تُشرِكَ الذُّرِّيَّةُ كُلُّها، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَبْقَى، والصَّوابُ خِلَافُ هَذَا.

فالصَّوابُ: أنَّ المَعْنَى جَعْلُ هَذِهِ الكلمَةِ هِيَ الكلمَةَ الوَحيدَةَ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيْهَا مَنْ بَعدَهُ، سَواءٌ الْتَزَمُوها أَمْ لَمْ يَلْتزِمُوهَا.

وقَولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أَيْ: أَهْلَ مكَّةَ] ولَوْ قِيلَ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أيْ: عَقبِهِ؛ لأَنَّ الآيَاتِ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ أَهْلِ مَكَّةَ، فِيهَا العَقِبُ.

ومَعلُومٌ أنَّ أهلَ مكَّةَ مِنْ عَقبِهِ، وأنَّ بَنِي إسرَائِيلَ مِنْ عَقبِهِ، فإذَا قُلْنا: إنَّ الضَّميرَ فِي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَعُودُ إِلَى ﴿عَقِبِهِۦ﴾ صَارَ أعَمَّ ممَّا قَالَ المفسِّر؛ لأَنَّه خصَّها بجُزْءٍ مِنَ العَقِبِ، وهَذَا قُصُورٌ بِلَا شَكٍّ؛ ولهَذَا اتَّخِذْ هذِهِ القَاعِدَةَ: (لَا تُفسِّر القُرآنَ بأخَصَّ ممَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ)، بمَعْنَى: إِذَا كَانَ القُرآنُ يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ عَامٍّ فَلَا تُخصِّصْه، إلَّا إِذَا كَانَ هُناكَ دَلِيلٌ، وإلَّا فأَبْقِه عَلَى عُمُومِهِ.

إِذَنْ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى العَقِبِ مِنْ قُرَيشٍ وبَنِي إسرَائِيلَ.

لكِنْ مَا مَعْنَى ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً﴾؟

عَلَى كَلَامِ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَعْنِي: أنَّها ستَبْقَى هَذِهِ الكلمَةُ فِي العَقِبِ، فلَا يُمكِنُ أَنْ يُفقَدَ مِنهُم التَّوحيدُ.

والصَّوابُ: أنَّ جَعْلَها جَعْلًا شَرْعيًّا، بمَعْنى أنَّهُ عَهِدَ إِلَى عقبِهِ أَنْ يُوحِّدوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فمِنْهُمْ مَنْ أَطَاعَ ومِنْهُم مَنْ عَصَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: مزيَّة عظِيمَةٌ لإبرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: وهِيَ إعْلَانُهُ البرَاءَةَ ممَّا يَعبُدُ قَومُهُ ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّوحِيدُ الخَالِصُ فِي إبرَاهِيمَ؛ لقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهَذَا مَعْنَى قَولِي: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ). فـ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ بإِزَاءِ (لَا إِلَهَ)، و﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بإِزَاءِ (إِلَّا اللهُ)، إِذَنْ هَذِهِ الكَلِمَةُ ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بمَعْنَى: لَا إِلَه إِلَّا اللهُ. تمَامًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبَغِي للإِنسَانِ أَنْ يَقرِنَ الحُكْمَ بالدَّلِيلِ؛ لأَنَّهُ أَبلَغُ، ذَلِكَ حِينَ قَالَ إبرَاهِيمُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: قُوَّةُ الرَّجَاءِ -أَيْ: رَجَاءِ إبرَاهِيمَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ-؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ والسِّينُ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى التَّحقِيقِ.

والهِدَايَةُ نَوْعَانِ:

النَّوعُ الأَوَّلُ: هِدَايَةُ الدَّلالَةِ بمَعْنى الدَّلالَة عَلَى الحَقِّ، وهَذِهِ تَكُونُ مِنَ اللهِ، ومِنْ عِبَادِ اللهِ.

النَّوعُ الثَّانِي: هدَايَةُ التَّوفِيقِ للحَقِّ، وهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا أَحَدَ يَملِكُها، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَهدِيَنا وإِيَّاكُمْ.

ثُمَّ الآيَاتُ الوَارِدَةُ فِي هَـذَا: مِنْهَا مَا يَتعيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى هِدَايَةِ التَّوفيقِ، ومِنْـهَا مَا يَتعيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى هِدَايَةِ الدَّلالَةِ، ومِنْهَا مَا يَشْمَلُ الأمرَينِ، فالآيَاتُ الوَارِدَةُ فِي الهِدَايَةِ، فقَـوْلُ المُصلِّي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] يَشْمَلُ الأمرَينِ: هِدَايَةَ الدَّلالَةِ وهِيَ العِلْمُ، وهدَايَةَ التَّوفِيقِ وهِيَ العَمَلُ، فهَلْ أَنْتَ أَيُّها المُصلِّي تَشْعُرُ بهَذَا إِذَا قُلْتَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أو تَشْعُرُ بأَنَّكَ تَتْلُو القُرآنَ فقَطْ؟

الثَّانِي غَالبًا، فأَكثَرُ النَّاسِ يَقُولُ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يَقْرَؤُها عَلَى أَنَّها

آيَةٌ تُقرَأُ، لَا يَشْعُر بأَنَّ المَعْنَى اهْدِنِي: عَلِّمْني ووفِّقْنِي للعَمَلِ، لَا يَشْعُرُ بهَذَا، لكِنِ استَشْعِرْ هَذَا الشَّيءَ حتَّى تَعْرِفَ عَلَى أيِّ شَيْءٍ تُؤمِنُ.

مِثَالُ هِدَايَةِ الدَّلالَةِ وَحْدها: قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيِّه مُحمَّد: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] هَـذِهِ هِدَايَةُ دَلَالَـةٍ يَعْنِي: تَدُلُّ النَّـاسَ إِلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ.

ومثَـالُ هدَايَةِ التَّوفِيقِ قَـولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، يَقُولُ للرَّسُولِ ﷺ يَعْنِي: لَنْ تُوفِّقَ أحَدًا لِهدَايَةٍ ولَوْ كُنْتَ تُحِبُّه؛ ولهَذَا حَاوَلَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ حَضرَ عمَّه أبَا طَالِبٍ وهُوَ فِي سِيَاقِ المَوْتِ، حَاوَلَ أَنْ يُوحِّدَ اللهَ ولَكِنْ عَجزَ، قَالَ فِي سِياقِ المَوْتِ: «**يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. كلِمةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» وكَانَ عِنْدَهُ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيشٍ جَلِيسَا سُوْءٍ، فقَالَا لأَبِي طَالِبٍ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ.

يَعْنِي: جَدَّه الَّذِي تَفتَخِرُ بِهِ قريشٌ، فكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّة عبدِ المُطَّلبِ[1]. وأَبَى أَنْ يقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فالهِدَايَةُ الَّتِي عجزَ عنْهَا النَّبيُّ ﷺ هِيَ هِدَايَةُ التَّوفِيقِ، أمَّا هِدَايَةُ الدَّلالَةِ فقَد قَالَ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**».

وقَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] مِنْ هِدَايَةِ الدَّلالَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، رقم (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَـولُهُ تعَالَى: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:٨٧] يَشْمَـلُ الأَمْرَينِ جَمِيعًا.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ للإنسَانِ أَنْ يَدْعُـوَ فيَقُولُ: «يَارَبِّ اهْدِنِي هِدَايَةَ التَّوفِيقِ». يُعيِّنُ هِدَايَةً مُعيَّنَةً؟

فالجَوابُ: لَا، يَقُولُ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي. ويَنْوِي الهِدَايتَينِ، أَوْ يَقُولُ: اللَّهُمَّ علِّمْنِي ووفِّقنِي للعَمَلِ الصَّالِحِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَمامُ نُصْحِ إبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لعَقبِهِ؛ حيْثُ جعَلَ كلِمَةَ التَّوحِيدِ بَاقِيَةً فِيهِ، وهَذَا بمَنْزِلَةِ الوَصيَّة للعَقِبِ أَنْ يَقُومُوا بهَذِهِ الوصيَّةِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرُّجوعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الأَسْلَافُ مِنَ الحَقِّ؛ لقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.



الآيــة (٢٩)

• • ● • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف:٢٩].

• • ● • •

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ بَلْ ﴾ هذِهِ للإِضْرَابِ، إِضْرَابُ انتِقَالٍ؛ لبَيَانِ مِنَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى قُرَيْشٍ.

قَالَ المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المُشرِكين]، أَيْ: أَبقَيْتُهم [﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ ولَمْ أُعاجِلْهُمْ بالعُقُوبَةِ] بَلْ أَبقاهُمْ بدُونِ عُقُوبةٍ مَعَ شِرْكِهم وكُفْرِهِمْ، واتِّخاذِ أصنامٍ كاللَّاتِ والعُزَّى وهُبَل ومَنَاةَ. ﴿حَتَّىٰ﴾ للغَايَةِ يَعْنِي: إِلَى أَنْ ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يَقُولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآنُ] والصَّوابُ مَا هُوَ أَعَمُّ: القُرآنُ، والإِسْلَامُ، والسُّنَّةُ. فهُوَ أَعَمُّ مِمَّا قَالَهُ المُفسِّر.

ونحْنُ نقُولُ بالقَاعِدَةِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا قَبْلَ قَلِيلٍ، وهِيَ إِبقَاءُ القُرآنِ عَلَى عُمُومِهِ فلا نُخَصِّصُه؛ فنَقُولُ: ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الَّذِي أَتَى بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ القُرآنِ والسُّنَّةِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِيعَةِ.

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ مُظهِرُ عِلْمِ الأحكَامِ الشَّرعِيَّةِ، وهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ].

﴿وَرَسُولٌ﴾ نكِرةٌ للعِلْمِ بِهِ، ونكِرَةٌ للتَّعظِيم، وقَولُهُ: ﴿مُّبِينٌ﴾ أَيْ: مُظهِرٌ للأحكَامِ الشَّرعِيَّة والأَمْرِ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ أَنَّ اللهَ بيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ؛ إنْ شَاءَ متَّعَ النَّاسَ وأَبقَاهُمْ، وإِنْ شَاءَ أهلَكَهُم؛ لقولِهِ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فالتَّمتِيعُ عَائِدٌ إِلَيْهِ وَحْدَهُ.

وأفعَالُ اللهِ لَيْسَ لَهَا حَصْرٌ، فالَّذِي مَتَّعهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ فهُوَ مِنْ فِعْلِ اللهِ فَلَا حَصْرَ لَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ الحِكْمَةُ فِي إبقَاءِ الكَافِرِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، وإِلَّا لأَهْلَكَهُ، لكِنْ لَهُ الحِكْمَةُ، ومِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَأتِيَ حقٌّ فيُؤمِنُ بِهِ، فيَسعَدُ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ، ومِنَ الحِكْمَةِ فِي بقَاءِ الكُفَّارِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ امتِحَانٌ للمُؤمِنينَ مَعَ هؤُلَاءِ الكُفَّارِ، بجِهَادِ الكُفَّارِ، وظُهُورِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى المُسلِمِينَ بالإِسْلَامِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ فهُوَ حَقٌّ، إِنْ كَانَ أَخْبَارًا فهِيَ صِدْقٌ، وإِنْ كَانَتْ أَحْكَامًا فهِيَ عَدْلٌ، ولَيْسَ فِيمَا جَاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ بَاطِلٌ، كُلُّه حَقٌّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ حقًّا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بيَّنَ كُلَّ مَا تَحتَاجُهُ أُمَّتُه إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ فتَفْعَلُه، ومِنْ شَرٍّ فتَترُكُه، قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقَدْ تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا مِنْ طَائِرٍ يُقلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّماءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا[1].

وإِذَا شِئْتَ مِصدَاقَ هَذَا القَوْلِ فانْظُرْ: الشَّرِيعَةُ الإِسْلامِيَّةُ جَاءَتْ بتَقْرِيرِ التَّوحِيدِ، وهَذَا أعظَمُ مَا يَكُونُ، جَاءَتْ ببَيَانِ الصَّلاةِ والزَّكَاةِ والحَجِّ والصِّيامِ، جَاءَتْ بآدَابِ الأكْلِ والشُّربِ، جاءَتْ بآدَابِ التَّخلِّي منْهما -مِنَ الأكْلِ والشُّربِ-

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣).

جاءَتْ بآدَابِ اللِّباسِ، حتَّى لُبْسُ الثَّوبِ جاءَتِ الشَّريعَةُ بِهِ؛ تُدخِلُ الكُمَّ الأيمَنَ قَبْلَ الأيْسَرِ، وتَخْلَعُ الأيسَرَ قَبْلَ الأيمَنِ، جاءَتْ بآدَابِ مُعامَلَةِ النَّاسِ بعضِهُم مَعَ بَعْضٍ.

كلُّ شَيْءٍ دَقِيقٍ أوْ جلِيلٍ فالشَّريعَةُ جاءَتْ ببيَانِهِ -ولله الحَمْدُ- لكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَضِلُّ، ويَهتَدِي مَنْ يَهتَدِي.



الآيــة (٣٠)

• ● ○ ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف:٣٠].

• ● ○ ● •

نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ ويَعْنُون بِهِ القُرآنَ؛ لأَنَّ القُرآنَ أَبْيَنُ الكَلَامِ وأفصَحُ الكَلَامِ، وقَدْ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ البيَانِ لَسِحْرًا»[1]؛ ولهَذَا كَانَتْ قُرِيشٌ تَأْتِي خُفيَةً فِي اللَّيلِ لتَستَمِعَ قِرَاءَةَ النَّبيِّ ﷺ، أخذَ بأَلْبَابِهَا وجَرَّها جرًّا عَنِيفًا إِلَى استِمَاعِهِ فقَالُوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ سَحَرَنا مُحَمَّدٌ، محمَّدٌ سَاحِرٌ، كَاهِنٌ، مجْنُونٌ ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ! فأكَّدُوا أَنَّهُم كَافِرُون بِهِ؛ لأَنَّه -عَلَى زَعمِهِمْ- سِحْرٌ، وإِذَا كَانَ القُرآنُ سِحْرًا فالَّذِي جَاءَ بِهِ يَكُونُ سَاحِرًا؛ ولهَذَا لقَّبُوا النَّبيَّ ﷺ بألقَابِ السُّوءِ؛ حتَّى يَنْفِرَ النَّاسُ مِنْ دَعوَتِهِ، ولكِنْ -والحَمْدُ لله- كُلَّما أَحْدَثُوا شَرًّا أَحْدَثَ اللهُ خَيْرًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: شِدَّةُ عِنَادِ المُكذِّبِينَ للرَّسُولِ ﷺ؛ حيثُ زَعَمُوا أنَّ مَا جَاءَ بِهِ سِحْرٌ مَعَ أَنَّهُ حقٌّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّةُ عِنَادِهِم؛ حيْثُ أَعلَنُوا إعْلَانًا صَرِيحًا أَنَّهُم كَافِرُون بِهِ ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.



الآيــة (٣١)

• • ~ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

• • ~ • •

قَالُوا أيضًا لَمَّا جَاءَهُمُ الحقُّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا﴾ قَالَ الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَلَّا] ﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: ﴿لَوْلَا﴾ بمَعْنَى: هَلَّا، ولَهَا أمثِلَةٌ: مِثْلُ قولِهِ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:١٣] أَيْ: هَلَّا جَاؤُوا عليْهِ بأَرْبعَةِ شُهداءَ.

وقَوله: ﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ هـذِهِ عِلَّة أُخرَى لردِّهم القُرآنَ، يَقُولُون: لَوْ كَانَ هَذَا القُرآنُ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ عظِيمٍ مِنَ القَريتَينِ، وهُمَا مَكَّةُ والطَّائِفُ. يَعْنِي: لكُنَّا قَبِلْنَاهُ، لكِنَّهُ لَمْ يَنزِلْ عَلَى رَجُلٍ عظِيمٍ مِنَ القَريتَينِ فَلَا نَقبلُهُ، -سُبْحَانَ اللهِ- مَا أعظَمَ عِنَادَهم! إنَّ محمَّدًا ﷺ هُوَ أعظَمُ رَجُلٍ فِي قُريشٍ، إنْ نظَرْتَ إِلَى سِلسِلَةِ آبَائِهِ وجَدْتَ الأَمْرَ كـذَلِكَ، وإِذَا نظَرْتَ إِلَى خُلُقِهِ ومُعَامَلَتِهِ وَجَدْتَ الأَمْرَ كذَلِكَ، حتَّى كَانُوا يُلقِّبُونَه بالأَمِينِ، ولَمَّا جَاءَ الحَقُّ صَارَ كذَّابًا، صَارَ سَاحِرًا، صَارَ مجْنُونًا، صَارَ كاهِنًا.

إِذَنْ: تَعلَّلُوا الْآنَ بعِلَّة ثَانيَةٍ -غَيْر أَنَّ القُرآنَ سِحْرٌ-، وهِيَ أَنَّهُم قَالُوا: لَوْ أَنَّ القُرآنَ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ عظِيمٍ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، أَوْ أَهْلِ مَكَّةَ لقَبِلْنَاهُ، ولكِنْ نَزَلَ عَلَى مُحمَّدٍ، ولَيْسَ عظِيمًا فِي قَومِهِ، فَلَا نَقبلُهُ.

يقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أَيْ: مِنْ أَيَّة مِنْهُما] إمَّا مَكَّةَ، وإمَّا الطَّائفِ. ﴿عَظِيمٍ﴾ أَيْ: مُعظَّم فِي قَوْمِهِ، ثُمَّ سَمَّاهُمُ: [الوَليدُ بْنُ المغيرَةِ بمَكَّةَ، أَوْ عُروَةُ بْنُ مسعُودٍ الثَّقَفيُّ بالطَّائفِ] وهَذَا التَّعيينُ يَحتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، فإِذَا صَحَّ -مِنْ حَيْثُ التَّاريخُ- أَنَّ أهْلَ مَكَّةَ يَعْنُون هَذَينِ الرَّجُلينِ فَلَا غَرَابَةَ، وإِلَّا فتبْقَى الْآيَةُ عَلَى إبهَامِهَا، وأَنَّهُم تعَلَّلُوا بهَذِهِ العِلَلِ البَاطلَةِ، بأَنَّ القُرآنَ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَجُلٍ عظِيمٍ مِنَ القَريتَينِ.



الآيــة (٣٢)

• • ෴ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢].

• • ෴ • •

قَولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الاستِفْهَامُ هُنَا للإنْكَارِ. يَعْنِي: هَلْ هُمُ الَّذِين يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ اللهِ، فيَجْعلُونَ لهَذَا حظًّا ولهَذَا حظًّا، أَوْ يَقُولُونَ: هَذَا لَا يَستَحِقُّ وهَذَا يَستَحِقُّ. ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ قَالَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالنُّبوَّةِ] وهَذَا أيضًا مِمَّا يُؤخَذُ عَلَى المُفسِّرِ، لأَنَّهُ خصَّهُ بالنُّبوَّةِ، ونحْنُ نَقُولُ: بالنُّبوَّةِ وغيرِهَا. هُـمْ لَا يَقْسِمُونَ رحمَةَ اللهِ لَا بالنُّبوَّةِ ولَا بالقُوَّة، ولَا بالأكْلِ ولَا بالشُّربِ، ولَا غَـيْرِ ذَلِكَ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: الْآيَةُ هَذِهِ ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ مَذكُورَةٌ فِي سِيَاق قولِه تَعالَى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وهُنا خَصَّ النُّبوَّة بأَنْ تكُونَ بأَحَدِ الرَّجُلينِ؟

فالجَوابُ: نَقُولُ: نَعَم السِّياقُ فِي النُّبوَّة، لكِنْ إذَا كَانَ عَامًّا دخلَتْ فِيهِ النُّبوَّةُ؛ ولهَذَا قَالَ الأُصوليُّون: العِبْرَةُ بعُمُومِ اللَّفظِ لَا بخُصُوصِ السَّببِ، والسِّياقُ لَا يَكُونُ دَلِيلًا؛ لأَنَّهُ لَوْ قُلْنا: إنَّهُ عَامٌّ لَمْ يَخْرُجْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّياقُ، أمَّا إِذَا كَانَ يَخرُجُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّياقُ فمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ.

وعَلَى هَذَا نَقُولُ: المُرادُ برَحْمَةِ اللهِ مَا هُوَ أعَمُّ مِنَ النُّبوَّةِ. يَعْنِي: النُّبوَّةَ، وسَعَةَ الرِّزقِ، والأمْنَ، وكثْرَةَ الأولَادِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهُمْ لَا يَقسِمُونَ هَذَا.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وهَذَا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ لَا يُمكِنُ إنكَارُه. يَعْنِي: إنْ كَانُوا صَادِقِينَ هُمُ الَّذِين يَقْسِمُون رَحْمَةَ اللهِ فلْيَنظُرُوا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ: قدَّرْنَاهَا هَذَا غنيٌّ، وهَذَا فقِيرٌ، وهَذَا مُتوسِّطٌ، هَذَا قَادِرٌ، وهَذَا عَاجِزٌ، وقُريشٌ لَا تُنْكِرُ هَذَا؛ لأَنَّهُ شَيْءٌ معلُومٌ مَلمُوسٌ محسُوسٌ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ فجَعَلْنا بعضَهُم غنِيًّا، وبعْضَهُم فقِيرًا، وهَذَا مِثَالٌ، وإلَّا فنَقُولُ: وجعَلْنا بعضَهُم ضَعِيفًا وبعضَهُم قَوِيًّا، وبعضَهُم قَادِرًا وبعضَهُم عَاجِزًا.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فجَعَلْنا بعضَهُم غَنيًّا، وبعضَهُم فقِيرًا ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ بالغِنَى ﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾].

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالغِنَى] ولكِنْ هَذَا أيضًا مِنَ القُصُورِ، **والصَّوابُ**: أَنَّهُ رَفَعَ بعضَهُم فَوْقَ بعْضٍ درجَاتٍ فِي الغِنَى، والعِلْمِ، والعَقْلِ، والخُلُقِ، وغَيْرِ ذَلِكَ. رَفَعَ اللهُ بعْضَ النَّاسِ عَلَى بعْضٍ درجَاتٍ. أَيْ: درَجَاتٍ واسِعَةً.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ الغَنيُّ ﴿بَعْضًا﴾ الفَقِيرَ ﴿سُخْرِيًّا﴾ مُسخَّرًا فِي العَمَلِ لَهُمْ بالأُجرَةِ، واليَاءُ للنَّسَبِ، وقُرِئَ بكَسْرِ السِّينِ].

رَفَعَ اللهُ تعالى بعضَهُم فَوْقَ بعْضٍ درجَاتٍ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ يَقُولُ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَعْضُهُم﴾ الأَغْنِيَاءُ ﴿بَعْضًا﴾ الفُقَرَاءَ] هَذَا قَاصِرٌ؛ لأَنَّ المُرادَ

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ حتَّى فِي غَيْرِ الغِنَى، حتَّى فِي الذَّكاءِ، حتَّى فِي الصِّناعَةِ، فتَجِدُ رَجُلًا مَثَلًا عِنْدَهُ خِبرَةٌ فِي الصِّناعَةِ يَأْتِي بالعُمَّالِ هُوَ فَوقَهُم، كذَلِكَ فِي الذَّكاءِ يَجْلِسُ مَعَ قَومٍ ويَتحَدَّثُ إِلَيْهِمْ بذَكائِهِ المُفرِطِ، وهُمْ دُونَ ذَلِكَ، فيَرفَعُهُمُ اللهُ.

المُهِمُّ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ نُخَصِّصَ عُمُومَ القُرآنِ إِلَّا بدَلِيلٍ.

وقَولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [اليَاءُ للنَّسَبِ] أَيْ: لنَسَبِ التَّسخِيرِ.

وقَولُهُ: [قُرِئَ بكَسْرِ السِّينِ] المُفسِّر لَهُ اصطِلَاحٌ لَا بُدَّ أَنْ نفهَمَهُ، إِذَا قَالَ: (وفِي قِرَاءَةٍ) فهِيَ سَبْعيَّةٌ، وإِذَا قَالَ: (قُرِئَ) فهِيَ شَاذَّة؛ هَذَا اصطِلَاحُهُ، فهُنَا يَقُولُ: [قُرِئَ بكَسْرِ السِّينِ]، فتكُونُ القِرَاءَةُ شَاذَّةً خَارِجَةً عَنِ القِرَاءَاتِ السَّبْعِ، وهَذَا هُوَ الصَّوابُ أَنَّها قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ؛ لأنَّ السِّينَ بالكَسْرِ الاستِهْزَاءِ، كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص:٦٣]، فقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أَيْ: هُزُءًا.

وأَمَّا بالضَّمِّ (سُخْرِيًّا) فهُوَ مِنَ التَّسخِيرِ، يَعْنِي: التَّذلِيلِ؛ إِذَنِ: المُناسِبُ هُنَا الضَّمُّ؛ لأَنَّهُ مِنَ التَّسخِيرِ لَوْلَا اختِلَافُ النَّاسِ هَذَا الاختِلَافَ لتَعطَّلَتِ المَصَالِحُ، فلَوْ كَانُوا كُلُّهم أغنيَاءَ فَلَا أحَدَ يَقُومُ بالعَمَلِ؛ لأَنَّهُ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَعْمَلَ قَالَ لَهُ: إِذَا كَانَ عِنْدَكَ أَلْفُ رِيَالٍ أَنَا عِنْدِي أَلفانِ. وكذَلِكَ أيضًا بَقِيَّةُ الأَوْصَافِ لَولَا هَذَا الاختِلَافُ مَا قَامَتِ الدُّنيَا أَبدًا، وهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ هُنَاكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى وهِيَ أَنْ يُعرَفَ بهَذَا قُدْرَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حيْثُ جَعَلَ هَذَا البَشَرَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وبقُوَّةٍ وَاحِدَةٍ، ومَعَ ذَلِكَ يَتَفَاضَلُون تفاضُلًا كَبِيرًا فِيمَا أَعطَاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الغِنَى وغَيرِه.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: القَاعِدَةُ العِبرَةُ بعُمُومِ اللَّفظِ لَا بخُصُوصِ السَّبَبِ، الآيَة: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ لَمَاذَا لَا يَحتَمِلُ المَعنيَيْنِ السُّخرية، وأيضًا التَّسخِيرَ؟

فالجَوابُ: أنَّ هَذا لَا يَستَقِيمُ؛ لأَنَّ اختِلَافَ الطَّبَقَاتِ لَيسَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَستَهزِئَ بعضُهُمْ ببعْضٍ، لكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُسخِّر بعضُهُمْ بعْضًا فِي العَمَلِ، ولَا يُمكِنُ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بحِكْمَتِهِ يَجْعَلُ طبقَاتٍ مُختَلِفَةً مِنْ أَجْلِ أَنْ يَستَهزِئَ بعضُهُم ببعْضٍ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: الجَنَّةُ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فِي الدُّنيَا].

قَولُهُ: [﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: الجَنَّة] فِيهِ أيضًا شَيْءٌ مِنَ القُصُورِ، الرَّحمَةُ تُطلَقُ عَلَى الجَنَّةِ بِلَا شَكٍّ كَمَا قَالَ اللهُ تعَالَى لَهَا يُخَاطِبُها: «أَنْتِ رَحْمَتِي أرْحَمُ بِكِ مِنْ أَشاءُ»(١)، وقَالَ تعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧] يَعْنِي: الجَنَّةَ، لكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: رَحمَةُ اللهِ أعَمُّ مِنْ هَذَا، حتَّى رحمَةُ اللهِ تَعَالَى للعَبْدِ بهِدَايتِهِ للإسلَامِ والإيمَانِ خيْرٌ مِمَّا يَجمَعُونَ، فالأَوْلَى التَّعمِيمُ دُونَ التَّخصِيصِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أَيْ: أَنَّه الجَنَّةُ، هَلْ هَذَا مِنْ تَأْويلِهِ؟

فالجَوابُ: لَا، بل مِنَ التَّقصِيرِ فِي التَّفسِيرِ، لَيْسَ تَأْوِيلًا؛ لأَنَّ الجَنَّةَ رَحمَةٌ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذكَرْنَا أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ للجَنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي أرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، لكِنْ كَوْنُه قَصرهَا عِلَى وَاحِدٍ مِنَ الرَّحمَةِ فهَذَا قُصورٌ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: مُجَادَلَةُ الْمشرِكِينَ بالبَاطِلِ؛ لقَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ قُرَيشًا تَعرِفُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أحقُّ النَّـاسِ بالرِّسَالَةِ لَوْ صَدَّقُـوا بِهَا؛ لأَنَّهُ مِنْ خِيرَةِ العَرَبِ نَسَبًا، ولأَنَّهُ الأَمِـينُ الصَّادِقُ، وهُمْ يُسمُّونَهُ الأَمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأتِيَ بالرِّسَالَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ القَريَةَ تُطلَقُ عَلَى المُدُنِ الكَبِـيرَةِ، بَلْ عَلَى أُمِّ المُدُنِ؛ لقَـولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ ولقَولِهِ تعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣]، قَريتُهُ الَّتِي أَخْرجَتْـهُ هِيَ مَكَّةُ، فِي عُرْفِنَا الْآنَ تُطلَقُ القَريَةُ عَلَى المدِينَةِ الصَّغـيرَةِ، ولَوْ أَنَّكَ قُلْتَ لأَهْلِ المدِينَةِ الكَبيرَةِ: أَنْتُم أهْلُ القَريَةِ. لاشْتَاطُوا غَضَبًا، ولكِنْ يُقَـالُ: القُرآنُ بينَنَا، القَريَةُ تُطلَقُ حتَّى عَلَى المدِينَةِ الكَبيرَةِ؛ لأَنَّها مَأخُوذَةٌ مِنَ القَرْيِ، وهُوَ الاجتِمَاعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إنكَارُ اللهِ علَيْهِمْ، وبيَانُ أَنَّهُم لَيسُوا الَّذِين يَقسِمُون رحمَةَ اللهِ؛ لقَولِهِ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إقَامَةُ الدَّليـلِ الَّذِي لَا انفِكَاكَ عَنْهُ بأَنَّهُم لَا يَستَطِيعُونَ قَسْمَ رَحمَةِ اللهِ، يُؤخَـذُ مِنْ قَولِهِ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ فهَذَا لَا يُمكِنُـهم إنكَارُهُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ فِيهِمُ الغَنِيَّ والفَقِيرَ، والقَوِيَّ والضَّعِيفَ، والذَّكِيَّ والبَلِيدَ، والعَاقِلَ والسَّفِيهَ، هُمْ يَعْرِفُون هَذَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الحِكْمَةُ فِي أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ جعَلَ النَّاسَ عَلَى درجَاتٍ؛ لقَولِهِ: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبَاتُ التَّعليلِ والحِكْمَةُ لأفعَالِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَيْ: أنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَفْعَلُ لِحِكْمَةٍ -لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِحِكْمَةٍ- لقَولِهِ: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ لأَنَّ اللَّامَ هُنَا للتَّعلِيلِ.

وتَعْلِيلُ أحكَامِ اللهِ الكونيَّةِ مَوجُودٌ بكَثْرَةٍ فِي القُرآنِ، والأحكَامُ الشَّرعيَّةُ كالإيجَابِ والتَّحرِيمِ والإبَاحَةِ مُعلَّلةٌ، فكُلُّ حُكْمٍ مِنْ أحكَامِ اللهِ الكونيَّةِ أَوِ الشَّرعيَّةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حِكْمَةٍ.

ولكِنْ هُنَا سُؤَالٌ: هَلْ هَذِهِ الحِكَمُ معْلُومَةٌ للخَلْقِ أَوْ لَيْسَتْ معلُومَةً؟

فالجوابُ: مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ، ومنْهَا مَا لَيْس بمَعلُومٍ؛ لأَنَّ عُقُولَنا قَاصِرَةٌ مهْمَا بلغْنَا مِنَ العَقْلِ فهُوَ قَاصِرٌ، إِذَنْ خُذْ هَذِهِ الفَائِدَةَ: جَمِيعُ أَحْكَامِ اللهِ الكَونيَّةِ والشَّرعيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بحِكْمَةٍ، لكِنْ مِنَ الحِكَمِ مَا نَعْلَمُهُ ومِنْهَا مَا لَا نَعْلَمُه، هكَذَا يَجِبُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَيُّهما أَبْلَغُ فِي التَّعبُّدِ أَنْ يَعبُدَ اللهَ وهُوَ لَا يَعْرِفُ الحِكْمَةَ، أَوْ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَهُوَ يَعرِفُ الحِكْمَةَ؟

فالجَوابُ: أَمَّا مِنْ جِهَةِ التَّذلُّلِ المُطلَقِ فتَعبُّدُ الإنسَانِ بشَيْءٍ لَا يَعرِفُ حِكْمَتَهُ أبلَغُ مِنْ تَعبُّدِهِ بشَيْءٍ يَعرِفُ حِكْمَتَهُ؛ لأَنَّهُ إِذَا تَعبَّدَ بشَيْءٍ يَعرِفُ حِكْمَتَهُ فإِنَّهُ قَدْ يَتعبَّد للهِ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الحِكمَةِ، لكِنْ إِذَا لَمْ يَعرِفِ الحِكْمَةَ صَارَ أبلَغَ للتَّذلُّلِ، كَأَنَّهُ

يَقُولُ: سأَعبُدُ اللهَ سَواءٌ عَرَفْتُ الحِكْمَةَ مِنْ هَذَا أَوْ لَا.

مثالُ ذَلِكَ: رَمْيُ الجمَرَاتِ فِي الحَجِّ، يَأتِي الإنسَانُ بحَصًى مُعيَّنةٍ، ويَرمِيها فِي مَكَانٍ مُعيَّن، بينَما لَوْ أَتَى بأَضْعَافِ تِلْكَ الحَصَى بعْدَ عشَرَةِ أَيَّامٍ ورَمَى فِي هَذَا المكَانِ؛ لعُدَّ هَذَا عبثًا، فَما الحِكْمَةُ؟

الجَوابُ:

أولًا: الحِكْمَةُ أنَّ ذَلِكَ لإقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ؛ ولهَذَا كُلَّما رَمَى الإنسَانُ قَالَ: اللهُ أكبَرُ.

ثانيًا: أَنْ يَظْهَرَ بذَلِكَ أَثَرُ التَّعبُّد المُطلَقُ، حيْثُ يَفعَلُ الإنسَانُ هَذَا الفِعْلَ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ الغَايَةَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحدِيدِ، وأمثَالُ هَذَا كثِيرٌ، ولهَذَا أَطْلَقَ الفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى الأحْكَامِ الَّتِي لَا تُعلَمُ حِكْمَتُهَا اسْمَ تَعبُّديَّة، أَوْ هَذَا تَعبُّدٌ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ الغَرَضُ مِنْهُ إلَّا إقَامَةَ العِبَادَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جوَازُ استِخْدَامِ العُمَّال، تُؤْخَذُ مِنْ قَولِهِ تعالَى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحِكْمَةُ العظِيمَةُ فِي هَذَا -أَيْ: فِي التَّفاوُتِ- لأَنَّهُ لَوْلَا هَذَا التَّفاوُتُ مَا عُرِف قَدْرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الغَنِيِّ بالغِنَى، وعَلَى العَاقِلِ بالعَقْلِ، وعَلَى القَوِيِّ بالقُوَّة، وهكَذَا، لَولَا الجُنُونُ مَا عُرِفَ قَدْرُ قِيمَةِ العَقْلِ، ولَوْلَا المَرَضُ مَا عُرِف قَدْرُ قِيمَةِ الصِّحَّةِ، إذَنْ هَذَا مِنَ الحِكْمَةِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ رَحمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومِنْهَا الجَنَّة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ: مِنْ كُلِّ مَا يَجمَعُونَ؛ لأَنَّهُ الغَايَةُ الَّتِي يَسعَى إِلَيْهَا كُلُّ مُؤمِنٍ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَسْعَى إِلَيْهَا كُلُّ عَاقِلٍ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإِشَارَةُ إِلَى خُطُورَةِ الجَمْعِ -أَيْ: جمْعِ الأَموَالِ- وأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُنسِي الآخِرَةَ، وهُوَ كذَلِكَ، فجمَعُ الأموَالِ يُنسِي الآخِرَةَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي؛ ولهَذَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوْهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»(١).

وهَذَا هُوَ الوَاقِعُ، فالدُّنيَا والدِّينُ فِي الغَالِبِ لَا يَجْتَمِعَانِ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ، وكَمْ مِنْ إنسَانٍ كَانَ فَقِيرًا مُستَقِيمًا عَلَى دِينِ اللهِ فأَغْنَاهُ اللهُ فصَارَ غِنَاهُ سَبَبًا لطُغيَانِهِ واستِغْنَائِهِ عَنْ رَبِّه، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧].



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٣٣)

• • ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف:٣٣].

• • ● ● •

﴿ وَلَوْلَآ ﴾ هذِهِ حَرْفٌ فِيهَا شَرْطٌ: (لَوْلَا كَذَا لكَانَ كَذَا)، فَهِي حَرْفُ امتِنَاعٍ لِوُجُودٍ ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا ﴾ لكِنِ امتَنَعَ الجَعْلُ لئَلَّا يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا ﴾ عَلَى الكُفْرِ] بدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾.

﴿ لَّجَعَلْنَا ﴾ أَيْ: صَيَّرنا ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بدَلٌ مِنْ ﴿ لِمَن ﴾] بدَلُ اشتِمالٍ ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ ﴾، والبَدَلُ هُوَ المقْصُودُ بالحُكْم، فيَكُونُ المعْنَى: لجعَلْنا لبُيوتِ مَنْ يَكْفُرُ بالرَّحمَنِ.

وقَولُه تعالى: ﴿ سُقُفًا ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بفَتْحِ السِّينِ وسُكُونِ القَافِ، وبضَمِّهما جمعًا] بفَتْحِ السِّينِ وسُكونِ القَافِ. أَيْ: سَقْفًا، مُفرَدٌ، وبضَمِّها جمْعًا ﴿ سُقُفًا ﴾، المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ بهَذَا وهَذَا، فهَلْ يَعْنِي: ذَلِكَ أَنَّهم قِراءَتَانِ؟

فالجَوابُ: نعَمْ هُمَا قِراءَتَانِ سَبْعيَّتان؛ لأنَّهُ لَمْ يُفضِّلْ أحدَهُما عَلَى الآخرِ فهُما

صَحِيحَانِ، وهَـذَا أيضًا مِنْ أُسلُوبِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَنَّهُ إِذَا قَـالَ بِكَذَا وكَذَا فهُمَا قِرَاءَتَـانِ سَبْعيَّتَانِ.

إِذَنْ: يَجُوزُ أَنْ تُقرَأَ: «لبُيُوتِهم سَقْفًا مِنْ فِضَّةٍ» أَوْ ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾.

وقَولُه تعالى: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ وهِيَ مَعرُوفَةٌ.

وقَولُه تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كالدَّرَجِ مِنْ فِضَّةٍ] أيضًا ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعْلُونَ إِلَى السَّطْحِ].



الآيــة (٣٤)

• • ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ [الزخرف:٣٤].

• • ● • •

وقَولُه تعـالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أَيْ: وجعـلْنا لبيوتِهِمْ أيضًا ﴿أَبْوَٰبًا﴾ يَعْنِي: مِنْ فِضَّةٍ، ﴿وَ﴾ جعَلْنا لهُمْ (سُرُرًا) يَعْنِي: مِنْ فِضَّة جمْعُ سَرِيرٍ ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ أَيْ: يَعتَمِدُونَ ﴿ وَزُخْرُفًا﴾ ذَهَبًا.

استَمِعْ لهَـذَا التَّصويرِ يَعْنِي: لَوْلَا أَنْ يَكفُرَ النَّاسُ جميعًا لجعَـلْنا للكَافِرِ هَذِهِ البُيُوتَ، ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، سُقـفًا مِنْ فِضَّة يَعْنِي: بدَل مَا يَكُونُ السَّقْـفُ مِنْ خَشَبٍ أَوْ مِنْ صَبَّاتِ أَسمَنْتٍ يَكُونُ مِنْ فِـضَّة، والُمرادُ فِضَّةٌ لامِعَةٌ تَجْـذِبُ النَّظَرَ، وتَسُرُّ العَيْنَ ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ قِيلَ: إنَّها الدَّرَجُ؟

وقَالَ بعْضُ الُمتأخِّرينَ: إنَّها المصَاعِدُ الكهربَائيَّةُ الَّتِي تُسمَّى (أَسَانْسِير، ولِفْت، ومَصْعَد)، ومَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ؛ لأَنَّ الدَّرَجَ العادِيَّةَ لَا تَلـفِتُ النَّظرَ كَثِيرًا؛ ولهَـذَا قَالَ: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أَيْ: يَعْلُون حتَّى يَصِلُوا إِلَى السَّقْفِ، وأَيًّا كَانَ هَذَا أَوْ هَذَا، فإِنَّها درَجٌ غَريبَةٌ لَيْسَتْ كالدَّرجِ الُمعتَادِ.

والثَّالِثُ ﴿أَبْوَٰبًا﴾ الُمفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: [مِنْ فِضَّة] بِنَـاءً عَلَى مَا ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الْآيَة ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ ولكِنَّ هَـذَا لَيْسَ بمُتعيِّنٍ، بَلْ نَقُولُ: أبْوابًا فخْمَةً لَيْسَتْ كالُمعتَادِ، سواءٌ مِنْ فِضَّة، أَوْ مِنْ حَدِيدٍ، أَوْ مِنْ خَشَبٍ، الُمهمُّ أَنَّها أَبْوابٌ غَيْرُ مُعْتَادَةٍ.

﴿وَسُرُرًا﴾ جمْعُ سَرِيرٍ، وهُوَ مَا يُجلَسُ عَلَيْهِ.

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أيضًا مَعَ السُّرُر مُتَّكَأً يُتَّكأُ عَلَيْـهِ. أَيْ: يُعتَـمَدُ، سَوَاءٌ مِنْ خَلْفِ الظَّهرِ، أَوْ مِنَ اليَمِينِ، أَوْ مِنَ الشِّمالِ، وهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ كثرَةِ الإِرْفَاهِ.



الآيـة (٣٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٥].

قَالَ تعـالَى: ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ هَذَا الذَّهَبُ، فهِيَ ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّـةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أبْوابٌ فَخـمَةٌ ﴿وَسُرُرًا ﴾ مُريحَةٌ ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ يَعْنِي: ذهَبًا، خمسَةُ أشيَـاءَ. قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [المَعْنَى: لَوْلَا خَوْفُ الكُفْرِ عَلَى المُؤمِنِ مِنْ إعطَاءِ الكَافِرِ مَا ذُكِر لأَعْطَينَاهُ ذَلِكَ؛ لِقِلَّةِ خَطَرِ الدُّنيا عنْدَنا، وعَدَمِ حَظِّهِ فِي الآخِرَةِ فِي النَّعيمِ].

ووجْـهُ ذَلِكَ أنَّ النُّفُوسَ مَيَّالَةٌ إِلَى اللَّهْوِ واللَّعِبِ والتَّرَفِ، فإِذَا رَأَى الإنسَانُ هَذَا التَّرَفَ للكَافِرِ؛ فإِنَّ ذَلِكَ يُغرِيهِ ويَضُرُّهُ، كَمَا يُفـعَلُ الْآنَ -بالنِّسبَةِ للمُنـصِّرِينَ ضُلَّال النَّصارَى-، يَمشُونَ إِلَى الأقَالِيمِ الفَقِيرَةِ ويُزيِّنُون لهُمُ الدُّنيَا، وهؤُلَاءِ الفقَرَاءُ يَتَّبِعُونَهم؛ لأَنَّ النُّفُوسَ مجبُولَةٌ عَلَى محبَّةِ المَالِ، والفَخْرِ والخُيَلَاءِ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [(إِنْ) مُخَفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلَةِ] الثَّقيلَةُ: المُشدَّدةُ، والمُخفَّفةُ: مَا حُذِفَ تَشدِيدُها. [﴿كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا ﴾ فـ(مَا) زَائِدَةٌ، والتَّشدِيدُ بمَعْنَى (إِلَّا)]، أَيْ: فِيهِمَا قِرَاءَتَانِ: لَمَا ولَمَّا، [فَـ(إِنْ) نافيَةٌ] خلَطَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، الْآنَ (إِنْ) إعرابُها عَلَى أنَّها مُخَفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلَةِ، فهِيَ مُؤكِّدَةٌ، ثُمَّ قَالَ فِي الأَخِيرِ: فَـ(إِنْ) نَافِيَةٌ.

وفَرْقٌ بَيْنَ الإثْبَاتِ والنَّفي، لكنَّ هَـذَا يَنبَنِي عَلَى (لمَا) إِنْ قُرِئَتْ بالتَّخْفِيفِ فَـ(إِنْ) مُخففةٌ مِنَ الثَّقيلَةِ، وإِنْ قُرِئَتْ بالتَّشديدِ فَـ(إِنْ) نافِيَةٌ؛ فصَارَ اختِلَافُ الإِعرَابِ فِي (إِنْ) مَبنيًّا عَلَى اختِلَافِ القِرَاءَةِ فِي (لمَا) فعَلَى قِرَاءَةِ التَّشـدِيد تكُونُ (إِنْ) نَافِيَةً، وَ(لمَا) بمَعْنَى (إلَّا).

وشَاهِدُ هَذَا قَولُهُ تعَالَى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أَيْ: مَا كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا حَـافِظٌ، وأمَّا إِذَا قُرِئَتْ (لمَا) بالتَّخفِيفِ فَـ(إِنْ) مُخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلَةِ، وتَكُونُ (مَا) زَائِدَةً، ويَكُونُ التَّقدِيرُ: وإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لمَتَاعُ الحيَاةِ الدُّنيَا. لأَنَّ (مَا) زَائِدَةٌ.

إِذَنْ ﴿لَّمَّا﴾ فِيهَا قِرَاءَتَانِ الأُولَى التَّشـدِيدُ، وبِنَاءً عَلَى هَذِهِ القِرَاءَةِ تَكُونُ (إِنْ) نَافِيَـةً و﴿لَّمَّا﴾ بمَعْنَى (إلَّا)، والشَّاهِـدُ لهَذَا قَولُهُ تعَـالَى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، أَيْ: مَا كُلُّ نَفسٍ إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ.

القِرَاءَةُ الثَّـانيَةُ «لمَا» بالتَّخفِيفِ، وعَلَى هَـذِهِ القِرَاءَةِ تَكُونُ (إِنْ) مُخفَّفةً مِنَ الثَّقيلَةِ بمَعْنَى (إِنَّ) وتَكُونُ (لمَا) زَائِدَةً ويَكُونُ تَقدِيرُ الكَلَامِ: إِنْ كُلُّ ذَلِكَ لمتَاعُ الحيَاةِ الدُّنيَا. المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ دَمَجَ القِرَاءَتَينِ، ولكِنَّ هَذَا هُوَ التَّفصِيلُ.

قَـالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُتمَتَّعُ بِهِ فِيـهَا -الدُّنيَا- ثُـمَّ يَزُولُ ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ الجَنَّة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾].

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ لَوْ قِيـلَ: كُلُّ الآخِرَة الجَنَّـة وعَرَصَاتُ القِيـامَةِ وسَلامَتُهم مِنْ شِدَّةِ هَولِ القِيامَةِ؛ لَو قِيل ذَلِكَ لكَانَ أَعَمَّ، فصَارَتِ الدُّنيا للكُفَّارِ مهمَا أُعطُوا فإِنَّهُ نَعيمُهُم، الآخِرَةُ للمُتَّقِينَ، جعَلَنِي اللهُ وإِيَّاكُمْ مِنْهُم.

واعْلَمْ أنَّ هَذِهِ الدُّنيا سِجْنُ المُؤمِنِ وجَنَّةُ الكَافِرِ، مَهْمَا بلَغَتْ مِنَ النَّعِيمِ فإِنَّها

سجْنُ المُؤمِنِ، ومَهْما بلَغَتْ مِنَ الجَحِيمِ فإِنَّها جَنَّةُ الكَافِرِ.

هذِهِ القِصَّةُ ذكَرَها العُلَماءُ فِي تَرجَمَةِ ابْنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ ابْنُ حَجَرٍ قَاضِيَ القُضاةِ فِي مِصْرَ، فمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَيتِهِ إِلَى مَقرِّ عَمَلِهِ عَلَى العربَةِ، تَجُرُّها الخُيولُ، أَوْ البِغَالِ فِي مَرْكَبٍ، مَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ برَجُلٍ يهودِيٍّ زَيَّاتٍ -يَعْنِي: يَبِيعُ الزَّيتَ- فاستَوْقَفَ اليَهـودِيُّ قَاضِيَ القُضاةِ، وقَالَ لَهُ: إِنَّ نَبِيَّكُم يَقُـولُ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ، وَجَنَّـةُ الْكَافِرِ**»[1] كَيفَ يَتَّفِقُ هَذَا مَعَ حَالِي وَحَالِكَ، أَنْتَ الْآنَ فِي نَعِيمٍ تَجُرُّك الخُيولُ، ولَكَ جَاهٌ وشَرَفٌ ومَنزِلَةٌ، وهُوَ اليَهوديُّ بهَذَا الذُّلِّ؛ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ وتَعَبٌ، فكَيْفَ هَذَا؟!

قَالَ: نَعَـمْ، مَا أَنَا فِيهِ الْآنَ بالنِّسبَةِ لنَعِيمِ الجنَّة سِجْنٌ؛ لأَنَّ نعِيمَ الجَنَّةِ أَعْلَى وأعظَمُ مِنْ هَذَا، أَمَّا بالنِّسبَةِ لَكَ فأَنْتَ فِي جَنَّةٍ بالنِّسبَةِ لعَذَابِ النَّارِ؛ لأَنَّكَ إِنْ مِتَّ عَلَى اليَهودِيَّةِ فأَنْتَ فِي النَّارِ، ويُعتبَرُ مَا فِيهِ اليَهودِيُّ الْآنَ: جَنَّةً، لأَنَّ هذا اليَهودِيَّ فِيمَا يَبْدُو لِي -وَاللهُ أعلَمُ- أَنَّهُ يَنشُدَ الحَقِيقَةَ، يُرِيدُ الحَقِيقَةَ، فلَمَّا بيَّنَ لَهُ ابْنُ حَجَرٍ هَذَا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ[2].

سُبْحَانَ اللهِ! فالإنسَانُ العَاقِلُ الَّذِي يُرِيدُ الحَقِيقَةَ لَا بُدَّ أَنْ يَهتَدِيَ.

المُهِمُّ: يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الأَشياءَ: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّـةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قَالَ: مَا هَذَا إِلَّا متَاعُ الحيَاةِ الدُّنيَا.

انْظُرْ: مَتَاعٌ كَالمتَاعِ يَحمِلُهُ المُسافِرُ ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأَنَّ الدُّنيَا مَهْمَا طَالَتْ بالإِنْسَانِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الزَّوالِ، إِمَّا أَنْ تَزُولَ الدُّنيَا عَنْهُ، وإِمَّا أَنْ يَزُولَ هُوَ عَنِ الدُّنيَا؛ ولِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٦).

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ[١]

صَحِيحٌ أَنَّ الإنسَانَ إِذَا تَذكَّر أَيْنَ مَآلُهُ، إمَّا مَوْتٌ مُبكِّر، وإمَّا هَرَم مُخرِف، الْآنَ يُوجَدُ الَّذِين بلَغُوا عُمْرًا طَوِيلًا، ووَصَلُوا إِلَى حَدِّ الهَرْمَةِ، هُمْ بأنفُسِهم مُتضَايِقُون وأهلُوهُم مُتضَايِقُون، تَجِدُ الإنسَانَ يَتضَايَقُ مِنْ أَبِيهِ وأُمِّهِ، وإِنْ كَانَ المُؤمِنُ يَصْبِرُ لكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَضَايَقَ، أَوْ مَوْتٌ عَاجِلٌ وينتَهِي المَوضُوعُ.

هَـذَا حَالُ الدُّنيَا فِي الوَاقِعِ، ولذَلِكَ الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ، بَادِرِ العُمرَ قَبْـلَ فَواتِهِ، اعْمَلْ صَالِحًا، وطَلَبُ العِلْمِ مِنْ أَفْضَلِ الأعمَالِ، لكِنْ بشَرْطِ أَنْ يَكُونَ العَالِمُ عَامِلًا، أَمَّا عِلْمٌ بلَا عَمَلٍ فالجَهْلُ -واللهِ- خَيْرٌ مِنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هذِهِ المُتعَةَ الدُّنيويَّةَ مَا هِيَ إِلَّا مَتَاعُ الحياةِ الدُّنيا فهِيَ زائِلَةٌ.

ويَتفَرَّعُ عَلَى هـذِهِ الفائِدَةِ: أَنْ لَا يَتعلَّق الإنسَـانُ بهَا، وأَنْ لَا يَهتَـمَّ بِهَا، وأَنْ يَعلَمَ أَنَّهُ عَائِشٌ بدُونِهَا ولَيْسَ لَكَ مِنَ الدُّنيا إِلَّا مَا أَكَلْتَ فأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقت فأَمْضَيْتَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّزهِيدُ فِي هذِهِ الأُمُورِ، وأَنْ لَا تَهتَمَّ بِهَا، لَا تُعلِّقْ قَلْبَكَ بمَظَاهِرِ الدُّنْيَا، فإِنَّك إِنْ فعَلْتَ هَلَكْتَ؛ ولهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مِنَ الدُّنيا مَا يُعجِبُه قَالَ: «**لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَة**»[٢]، لبَّيكَ يَعْنِي: إجَابَةً لَكَ؛

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب دعاء النَّبيِّ ﷺ: أصلح الأنصار والمهاجرة، رقم (٣٧٩٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِيَصرِفَ قلْبَه عمَّا يُعجِبُه ممَّا رَآهُ فِي الدُّنيا، ثُمَّ وَطَّن النَّفْسَ وَقَالَ: «**إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَة**» واللهِ هَذَا هوَ الحقُّ.

أمَّا عَيْشُ الدُّنيا فإِنَّه مهْمَا طَابَ لَكَ مَحْفُوفٌ بنكَدٍ قَبْلَهُ ونكَدٍ بعْدَه؛ لأَنَّكَ لَنْ تُحصِّلَه غَالِبًا إِلَّا بتَعَبٍ، ثُمَّ إِذَا حصَّلتَه هَلْ سيَبْقَى لَكَ هَذَا أَوْ لَا يَبْقَى؟ هَلْ ستبْقَى لَهُ أَوْ لَا تَبْقَى؟ ولَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ الأمْرينِ: إمَّا تَمُوتُ وتَتْرُكُه، وإمَّا أَنْ يَهلِكَ وأنْتَ حيٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: البُشْرَى للمُتَّقِينَ، وأنَّ لَهُمُ الآخِرَةَ، فالآخِرَةُ خَيْرٌ للمُتَّقِينَ، فَفِيهِ البِشَارَةُ وأنَّ الإنسَانَ الْمُتَّقِيَ إِذَا انتَقَلَ مِنَ الدُّنيا فلَا يَنْدَمُ؛ لأَنَّه انتقَلَ إِلَى دَارٍ أحسَنَ وأفضَلَ ممَّا فَارَقَهُم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحَثُّ عَلَى التَّقوَى، وذَلِكَ لأنَّ ذِكْرَ الجزَاءِ والثَّوابِ يَستَثِيرُ النَّفسَ حتَّى يَصِلَ الإنسَانُ إِلَى الوَصْفِ الَّذِي يَحصُلُ بِهِ عَلَى الثَّوابِ.



الآيات (٣٦-٣٨)

••<>••

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٨].

••<>••

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لَمَّا ذكرَ أحوالَ الدُّنيا، وأنَّهُ لولا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الكُفْرِ لمتَّعَ الكُفَّار بِمَا سمِعْتُم، وهذِهِ الدُّنيا لا بُدَّ أَنْ تَحمِلَ الإنسَانَ عَلَى الإعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ قَالَ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾.

قَولُهُ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ فسَّرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ[يُعرِضُ]، ولكِنَّ التَّفسِيرَ المُطَابِقَ أَنَّ مَعْنَى: ﴿يَعْشُ﴾ أَيْ: يَتَعَامَى حتَّى يَرى رُؤيَةَ الأعْشَى الَّذِي يُبصِرُ فِي النَّهارِ ولَا يُبْصِرُ فِي اللَّيلِ، فمَعْنَى: ﴿يَعْشُ﴾ أَيْ: يَتَعَامَى كَمَا فَسَّرَهَا بذَلِكَ ابْنُ كَثِيرٍ وغَيرُهُ مِنَ المُفسِّرينَ، ولكِنَّ المُفسِّرَ فسَّرَها بـ[يُعرِضُ]؛ لأَنَّهُ مِنْ لازِمِ التَّعامِي الإعرَاضُ.

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيِ: القُرآنِ] فجعَلَ المُفسِّرُ ذِكْرَ الرَّحمنِ يَعْنِي: القُرآنَ، وأَضَافَهُ إِلَى الرَّحمَنِ؛ لأَنَّ إنزَالَهُ رحمَةٌ للخَلْقِ، هكَذَا مَشَى المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والصَّوابُ: خِلَافُ ذَلِكَ، والمُرادُ بـ﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تَذَكُّر الرَّحمنِ، يَعْنِي: مَنْ

تَعَامَى عَنْ ذِكْرِ الرَّحمَنِ فِي قَلبِهِ واستِحْضَارِهِ لعظَمَةِ رَبِّه وجلَالِهِ؛ فإِنَّه يُقيِّض لَهُ الشَّيطانَ، فيَكُونُ هَذَا جَزاءً عَلَى إعرَاضِهِ وتَعَامِيهِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، وهَذَا كقَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٧].

فالصَّوابُ أنَّ المُرادَ بذِكْرِ الرَّحمَنِ لَيسَ القُرآنَ، بَلِ المُرادُ بذِكْرِ الرَّحمَنِ ذِكْرُ اللهِ نفسِهِ. يَعْنِي: يَغْفُلُ قَلبُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، ولَا يَذكُرُ اللهَ بقَلْبِهِ، فهَذَا هُوَ الَّذِي يُقيَّض لَهُ الشَّيطانُ فيَتَّبِعُ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُهُ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ هَلْ هَذَا يَكُونُ بالتَّقصِيرِ فِي أُمُورِ الطَّاعاتِ أَوِ انتِهَاكِ المُحرَّماتِ؟

فالجَوابُ: لَا، الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَسأَلَةٍ قَلبيَّةٍ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ يَتَعامَى. فإِذَا صَلَحَ القَلْبُ صَلَحَتِ الجَوارِحُ.

وقَولُهُ: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نُسبِّبُ لَهُ] وهَذَا قَرِيبٌ مِنَ المعْنَى المُطابِقِ، وإِلَّا فإِنَّ مَعْنَى ﴿نُقَيِّضْ﴾ أَيْ: نُهيِّئ لَهُ شَيطَانًا يَحُلُّ مَحلَّ ذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيَستَوْلِي الشَّيطانُ عَلَى قَلْبِهِ، والشَّيطانُ يَأمُرُ بالفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨].

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾: ﴿فَهُوَ﴾ أيِ: الشَّيْطانَ ﴿لَهُۥ﴾ أي: للعَاشِي عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴿قَرِينٌ﴾ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا يُفارِقُه]، نَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

ووجْهُ ذَلِكَ: أنَّ الإنسَانَ فعَّالٌ مُريدٌ مُتحرِّكٌ قلبًا وقالَبًا، فلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَشتَغِلَ

بشَيْءٍ، فإِمَّا أَنْ يَكُونَ بذِكْرِ اللهِ، وإمَّا أَنْ يَكُونَ بوَسَاوِسِ الشَّيطانِ، ولَا بُدَّ، لَا تَجِدُ أَحَدًا قلبُهُ ساكِنٌ لَا يَتحرَّكُ ولَا يُرِيدُ، هَذَا مُستحِيلٌ.

ولِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ فِي الأَسْمَاءِ: «**أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[1] هَمَّامٌ الإرادةُ القلبِيَّةُ، والحَارِثُ العَمَلُ، كُلُّ إنسَانٍ هكَذَا لَا بُدَّ. فيُهيِّئُ اللهُ لَهُ هَذَا الشَّيطانَ الَّذِي يُقارِنُهُ ولَا يُفارِقُهُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بالنِّسبَةِ لقُرنَاءِ السُّوءِ، إذَا كَانَ هُنَاكَ إنسَانٌ مُنحَرِفٌ يَظُنُّ الإنسَانُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعَهُ رُبَّما يَدْعُوهُ، هَلْ يُصاحِبُه أَوْ يُصادِقُه؟

فالجَوابُ: ليْسَ هَذَا صحيحًا، بَلْ يَجْلِسُ معَهُ للدَّعوةِ للحَقِّ ويُفارِقُه؛ لأَنَّهُ لَا بُدَّ إذَا لازَمَهُ أَنْ يَتأَثَّر، ولَا نَدْرِي هَلْ يُؤثِّرُ المُستقِيمُ عَلَى المُنحَرِفِ، أَوِ المنْحَرِفُ عَلَى المُستقِيمِ.

والمُشَاهَدُ الْآنَ فِي الغَالِبِ أَنَّ المُنحرِفَ هُوَ الَّذِي يُؤثِّرُ عَلَى المُستقِيمِ، هَذَا لَا نَعْلَمُه، فأَنْتَ لَا تُقارِنُه، تَأتِي تزورُهُ أَوْ تَدْعُوه إِلَى بيْتِكَ فَقَطْ. أَمَّا أَنْ تُلازِمَهُ وتَجعَلَهُ صَاحِبًا لَكَ فأَنْتَ عَلَى خَطَرٍ عظِيمٍ، والإنسَانُ تُسوِّل نفسُهُ أَنَّهُ إِذَا صَاحبَهُ كَانَ سَبَبًا فِي إقَامَتِهِ، ويَكُونُ الأمْرُ بالعَكْسِ مِثْلَ المَرْأةِ يَخْطِبُها إنسَانٌ مُنحَرِفٌ، وتَرْغَبُ أَنْ تَتزَوَّجَهُ، وتَقُولُ فِي نفْسِهَا، أَوْ يَقُولُ وَليُّها: يَهْدِيهِ اللهُ. لعَلَّ اللهَ يَهدِيهِ إذَا تزَوَّجَ، ويَكُونُ الأمْرُ بالعَكْسِ، هذِهِ المَرْأةُ المُستقِيمَةُ تَكُونُ مُنحَرِفَةً بواسِطَةِ هَذَا الزَّوجِ.

والوَاجِبُ عَلَى الإنسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ أَخٌ مُستقِيمٌ ثُمَّ انحَرَفَ -مِنْ ناحِيَةِ نُصحِهِ أو تَركِهِ بالكُلِيَّةِ- لأَنَّ الانحِرَافَ ينَصَبُّ عَلَى المَعَاصِي وعَلَى الدُّنيَا؛ الواجِبُ أَنْ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٤٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠)، من حديث أبي وهب الجشمي.

يَدْعُوَه، فالنَّبيُّ ﷺ أَلَمْ يَدْعُ عَشِيرتَهُ الأقربينَ، فلِمَاذَا لَا يَدْعُوهُ؟!

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَيِ: الشَّياطِينَ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أيِ: العَاشِينَ ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَيْ: طَرِيقِ الهُدَى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾].

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أيِ: العَاشُونَ الَّذِين صَدَّتْهُمُ الشَّياطِينُ ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِي الجَمْعِ رِعَايَةُ مَعْنَى (مَنْ)].

الشَّيْطانُ -نَعُوذُ باللهِ مِنْهُ- إِذَا استَوْلَى عَلَى قَلْبِ الإنسَانِ زيَّن لَهُ سُوءَ عمَلِهِ، وظَنَّ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، ولكِنَّهُ عَلَى بَاطِلٍ، وهؤُلاءِ هُمْ أَخْسَرُ النَّاسِ أعمالًا، كَمَا قَالَ تعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:١٠٣]، الجَوابُ بيَّنَهُ اللهُ، قَالَ: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]؛ لأَنَّ الشَّيْطانَ زَيَّن لهُمْ هَذَا، وقَالَ: أَنْتُمْ عَلَى حَقٍّ، أَنْتُمُ الأَعْلَونَ. وسَوَّل لهُمْ، وأَمْلَى لهُمْ، حتَّى تَبِعُوه.

ولهَذَا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أيِ: الشَّياطينَ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أيِ: العَاشِينَ ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَيْ: سَبِيلِ الحَقِّ وطَرِيقِ الهُدَى].

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ الوَاوُ تَعُودُ عَلَى العَاشِينَ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَيِ: العَاشِينَ ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ أَيْ: عَلَى هُدًى، وهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الخُسْرَانِ -والعِيَاذُ باللهِ- أَنْ يَتَمَادَى الإنسَانُ بالبَاطِلِ، وهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِي الجَمْعِ رعَايةُ معْنَى (مَنْ)] الجَمْعُ هُوَ قَولُهُ: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ فَفِيهَا رِعَايَةُ مَعْنَى (مَنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ كَلِمَةُ (مَنْ) وَ(مَا)، ومَا أَشبَهَهُمَا مِنَ الأَلفَاظِ العَامَّةِ، يَجُوزُ مُراعَاةُ مَعْنَاهَا ومُراعَاةُ لَفْظِهَا،

فاللَّفْظُ مُفردٌ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ ولذَلِكَ عَادَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِ بالمُفرَدِ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ أيضًا مُراعَاةُ اللَّفظِ ﴿فَهُوَ لَهُۥ﴾ مُرَاعَاةُ اللَّفظِ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ مُرَاعَاةُ المَعْنَى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كذَلِكَ مُراعَاةُ المَعْنَى.

إِذَنْ: إِذَا أَتَتْكَ (مَنْ) مَوصُولَةً كَانَتْ أَوْ شَرطِيَّةً فلَكَ أَنْ تُرَاعِيَ فِي ضَمِيرِهَا اللَّفظَ فتَجعَلَه مُفرَدًا، والمَعْنَى فتَجْعَلَهُ حَسبَ مَا أُرِيدَ بِهَا، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق:١١]، كُلُّ هَذَا مُرَاعَاةُ اللَّفظِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ مُرَاعَاةُ المَعْنَى ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ مُراعَاةُ اللَّفظِ، فتَجِدُ هَذِهِ الآيَاتِ تَارَةً رُوعِيَ اللَّفظُ، وتَارَةً رُوعِي المَعْنَى.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ العَاشِي بقَرِينِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿قَالَ﴾ لَهُ: (يَا) للتَّنبيهِ ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيْ: مِثْل بُعْد مَا بَيْنَ المَشرِقِ والمَغْرِبِ ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنْتَ لِي].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يَعْنِي: الشَّيطانَ وقَرِينَهُ، وذَلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ تبرَّأ كلُّ وَاحِدٍ مِنَ الآخَرِ ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ (يا) هَذِهِ للتَّنبيه، ولَا تَصِحُّ أَنْ تكُونَ للنِّداءِ؛ لأَنَّ (يَا) الَّتِي للنِّداءِ لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى اسْمٍ، لَا تَدْخُلُ عَلَى حَرْفٍ كَمَا هُنَا، ولَا عَلَى فِعْلٍ، فإِذَا وُجِدَتْ داخِلَةً عَلَى حَرْفٍ أَوْ فِعْلٍ فهِيَ للتَّنبيهِ ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ ومِثْلُ ذَلِكَ قَولُهُ تعالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٢٦] فهِيَ للتَّنبيهِ.

وقِيلَ: إِنَّ (يَا) داخِلَةٌ عَلَى مُنادًى محذُوفٍ، والتَّقدِيرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَا هَذَا لَيْتَ بَيْنِي وبينَكَ بُعدَ المَشرِقَينِ. يعْنِي: تُقدِّر المُنادَى اسمًا: يَا هَذَا لَيتَ بَيْنِي وبينَكَ بُعْدَ المَشرِقَينِ.

فإذَا قَالَ قَائِلٌ: أيُّهما أَوْلَى نُقدِّر مناديً مُناسِبًا للسِّياقِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِحَّ حُلولُ (يَا) فِي هَذَا المكَانِ، أَوْ نَقُولُ: الأَصْلُ عَدَمُ التَّقدِيرِ. ونَجْعَلُ اليَاءَ للتَّنبيهِ؟

فالجَوابُ: الثَّانِي أَوْلَى؛ لأَنَّهُ إِذَا دَارَ الأمْرُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ فِي الكلَامِ شَيْءٌ محذُوفٌ أَوْ لَا، فالأَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ محذُوفٌ.

وقَولُهُ: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يَقُولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ]، وعَلَيْهِ فيَكُونُ فِي الكَلَامِ تَغْلِيبٌ، وهُوَ تَغْلِيبُ المَشْرِق عَلَى المَغْرِبِ، والتَّغلِيبُ هَذَا جارٍ فِي اللُّغةِ العربيَّةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ»[1] إِذَا جعَلْنا مُطلقَ الأذَانِ هُوَ الأذَانَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ دُخُولُ الوَقْتِ.

أمَّا إِذَا جعَلْنا الأذَانَ بمَعْنَى الإعلَامِ فإِنَّ الأَذانَيْنِ لَيْس فِيهَا تَغْلِيبٌ؛ لأَنَّ كُلًّا مِنَ الإقَامَةِ والأذَانِ يُسمَّى الأذَانَ، لكِنْ قَولُهم: القَمرَان. يَعنُونَ بذَلِكَ الشَّمسَ والقمَرَ، وقولُهُم: العُمَرَانِ. يَعنُونَ بذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ وعُمَرَ، هَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، فيَكُونُ ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيْ: بُعْدَ مَا بَيْنَ المَشرِقِ والمغرِبِ، ولكِنْ ذُكِر بلَفْظِ المَشْرِقِ تَغْلِيبًا.

ويُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَولِهِ: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيْ: مَشرِقِ الشَّمسِ شِتَاءً ومَشرِقِها صَيْفًا؛ لأَنَّ بينَهُما مسَافَةً عظِيمَةً جِدًّا لَا يَعْلَمُ قَدْرَها إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وكِلَا المَعنيَيْنِ صحِيحٌ. يَعنِي: سَوَاءٌ جَعَلْنا اللَّفْظَ للتَّغليبِ أَوْ لَا، والمُرادُ أَنَّ هَذَا العَاشِيَ الَّذِي أَضَلَّه الشَّيطانُ إِذَا جاءَ مَعَهُ يَوْمَ القِيامَةِ تبرَّأَ مِنْهُ، وقَالَ: ليْتَكَ بَعِيدٌ عَنِّي وأنَا بعِيدٌ عنْكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب بين كل أذانين صلاة لمن شاء، رقم (٦٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب بين كل أذانين صلاة، رقم (٨٣٨)، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: (ربُّ المَشرقينِ) أَحيانًا تَأتِي فِي القُرآنِ مُفردةً، وأحْيَانًا تَأتِي جَمْعًا، وأحيانًا تَأتِي تَثْنِيةً؟

فالجَوابُ: المَشَارِقُ والمَشرِقُ والمشرِقَينِ، تَأتِي عَلَى هَذِهِ الأوْجُهِ الثَّلاثَةِ ولَا مُنافاةَ بينَهَا؛ فقَولُهُ تعَالَى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل:٩] هَذَا مُفرَدٌ.

والمُرَادُ بالمَشْرِقِ هُنَا الجهَةُ؛ لأنَّ الجِهَاتِ أربَعٌ: شَرْقٌ، وغَرْبٌ، وجَنوبٌ، وشَمَالٌ. فالمَشرِقُ يَعْنِي: جِهَةَ المَشْرِقِ، والمَغرِبِ يَعْنِي: جِهَةَ المَغرِبِ.

أمَّا قولُه تعالى: ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠] بالجَمْعِ، فالمُرَادُ مَشَارِقُ النُّجومِ والكوَاكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهَا لَهُ مَشرِقٌ، أَوِ المُرادُ بالمَشَارِقِ مَشَارِقُ الشَّمسِ؛ لأنَّ كُلَّ يَوْمٍ للشَّمسِ مَشرِقٌ، ولَوْلَا ذَلِكَ مَا رَأَيتَها تَنْتَقِلُ مِنَ الشَّمالِ إِلَى الجَنُوبِ، ومِنَ الجَنُوبِ إِلَى الشَّمالِ.

أمَّا ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] المُثَنَّى، فالمُرادُ بذَلِكَ مَشرِقَا الصَّيفِ والشِّتَاءِ.

وقَولُهُ: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ هذِهِ الجُملَةُ إنشَائيَّةٌ للذَّمِّ، قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أنتَ] يَعْنِي: أنَّهُ قَدْ حُذِفَ فِيهَا المخْصُوصُ؛ لأنَّ (بِئْسَ) و(نِعْمَ) لا بُدَّ فيهما مِنْ فَاعِلٍ ومَخْصُوصٍ، وتَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي كُتُبِ النَّحو، ولَا علَيْنا مِنْهُ فِي هَذَا المكَانِ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: التَّحذِيرُ مِنَ الغفلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ؛ لأنَّكَ إِذَا غفلْتَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تعالى حلَّ مَحَلَّ ذِكْرِ اللهِ وَساوِسُ الشَّيطَانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعاقِبُ العبْدَ بِمَا يَقْتَضِيه الذَّنْبُ، وهَذَا كقَولِهِ

تعالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فهذا الرَّجُلُ لمَّا أَخْلَى قَلْبَه مِنْ ذِكْرِ اللهِ عُوقِبَ أَنْ يَحُلَّ محلَّه الشَّيطَانُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحذَرُ مِنْ قُرنَاءِ السُّوءِ؛ لأنَّ الشَّياطِينَ لَيْسَ اسمًا خاصًّا لشَياطِينِ الجِنِّ، بَلْ حتَّى الإنْسُ لهُمْ شَياطِينُ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢]، وقَالَ تعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١-٦].

فَفِي هَـذَا التَّحذيرِ مِنْ قُرَنَاء السُّوءِ، وقَدْ حـذَّر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوءِ؛ حيْثُ شبَّه قرِينَ السُّوءِ أَوْ جلِيسَ السُّوءِ بنافِخِ الكِيرِ، إمَّا أَنْ يُحرِقَ ثِيَابَكَ، وإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً[1]، ثُمَّ إِنَّ الوَاقِعَ كذَلِكَ.

فَمَا أَكْثَرَ مَا يَمُرُّ علَيْنَا مِمَّنْ يَتَّصِلُون بنَا يَشْكُون مِنْ قَوْمٍ كَانُوا مُستَقِيمِينَ وأئمَّةَ مسَاجِدَ، أَوْ مُؤذِّني مَسَاجِدَ اتَّصل بِهِمْ أُناسٌ مِنْ أصحَابِ السُّوءِ، فانْحرَفُوا انحِرافًا كامِلًا، ومِثْلُ هؤُلَاءِ -والعِيَاذُ باللهِ- إِذَا انحَرَفُوا -نسأَلُ اللهَ الثَّباتَ- يكُونُ انحِرافُهُم أشدَّ وأعظَمَ، كالمَاءِ الَّذِي حبَسْتَه ثُمَّ أَطلَقْتَ الحَبْسَ سيَنْدَفِعُ بقُوَّةٍ.

فالمُهِمُّ: أنَّ الإنسَانَ إِذَا أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ قَيَّضَ اللهُ لَهُ الشَّيطانَ مِنَ الإنْسِ أَوْ مِنَ الجِنِّ، فهُوَ لَهُ قَرِينٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المُلازِمَ أشدُّ تَأثِيرًا مِنَ العَـابِرِ الَّذِي يُلازِمُك، ويَبقَى قَرِينًا مَعَكَ أشـدَّ تأثيرًا مِنَ العَابِرِ، بمَعْنَى: أنَّك لَوْ جلَسْتَ مَعَ إنسَانٍ صاحِبِ سُوءٍ لمُدَّةٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَينِ رُبَّما تَأَثَّرتَ بِهِ ورُبَّما لَا تتأَثَّرُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مُقَارِنًا فإِنَّهُ سيُؤَثِّر؛ ولهٰذَا قَالَ: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

أَقُولُ هَذَا لتَحذَرُوا مِنَ الاستِمْرارِ مَع قُرنَاء السُّوء؛ ولتَعلَمُوا أَنَّكُم مَتَى علِمْتُمْ أَنَّه قَرينُ سُوءٍ فإِنَّه يَجِبُ علَيْكُمُ البُعدُ عَنْهُ، لَا تَقُلْ: أَخْشَى أَنْ يَتَأَثَّر، أَخْشَى أَنْ يَقُولَ: لَمِاذَا كَانَ الرَّجُل صَاحِبًا لِي ثُمَّ فَارَقَني؟ لَا يُهِمُّك هَـذَا، الَّذِي يُهِمُّكُ هُوَ نفْسُك فأَنْقِذْها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: العَمَى عَمَى القَلْبِ -والعِياذُ باللهِ- لَمَّا تَعَامَى بعَينِهِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ، وبقَلْبِه أيضًا؛ قُيِّض لَهُ هَـذَا الشَّيطانُ الَّذِي يَصُدُّه عَنِ الهُدَى وهُوَ يَحسَبُ أَنَّهُ مُهتَدٍ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ومَا أكثَرَ هَذَا! أَهْلُ البِدَعِ الَّذِين أَصَرُّوا عَلَى بِدَعِهِم، صَغِيرَةً كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةً، أَلَمْ يَكُونُوا قَدِ استَحْسَنُوها؟

فلِمَاذَا استَحْسَنُوها وهِيَ بِدْعةٌ مُضلِّلَةٌ؛ لأَنَّ الشَّيطَانَ صدَّهُم عَنِ الحَقِّ، أَهْلُ الأفكَارِ الرَّديئَةِ، كالعَلمانيِّينَ، والشُّيوعيِّين، والبَعثِيِّين، ومَنْ أَشبَهَهُم، لَمِاذَا استَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ؟ لأَنَّ الشَّيطانَ رَكِبَ قُلُوبَهُم -والعِياذُ باللهِ- فجعَلَهُم يَظُنُّون أَنَّ هَذَا السَّيِّئَ حسَنٌ، وهَذَا أَشدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الفِتْنَةِ أَنْ يَرَى الإنسَانُ السَّيِّئَ حسَنًا فيَمْضِي فِيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ بعضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وجْهُه أَنَّ هؤُلاءِ ظَنُّوا أَنَّهُم عَلَى حَقٍّ فاستَمَرُّوا فِي البَاطِلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا القَرينَ فِي الدُّنيا يَتبَرَّأ مِنْ صَاحِبِهِ يومَ القِيامَةِ يَقُولُ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّه مَعَ تَمنِّيهِ هَذَا الَّذِي لَنْ يُدرِكَ مِنْهُ شَيئًا، يُثْنِي عَلَى قَرينِهِ هَذَا بالذَّمِّ والقَدْحِ فيَقُولُ: فبِئْسَ القَرينُ أَنْتَ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مِنَ القُرنَاء مَنْ هُو قَرِينُ خَيْرٍ وقَرِينُ سُوءٍ، وهُوَ كذَلِك، وقَدْ بيَّن النَّبيُّ ﷺ هَذَا أَبْيَنَ شَيْءٍ؛ حَيْثُ قَالَ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**» يَعْنِي: يُعطِيَكَ هَدِيَّة، «**وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً، وَالجَلِيسُ السُّوْءُ كَنَافِخِ الْكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ**» بالشَّرَرِ الَّذِي يَتَطَايَرُ مِنَ النَّار إِذَا نُفِخَتْ «**وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً**»[1].



(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٣٩)

• • ✿ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩].

• • ✿ • •

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ﴾ أَيِ: العَاشِينَ تَمَنِّيكُم ونَدَمُكُم ﴿ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أَيْ: تَبيَّنَ لكُمْ ظُلمُكُم بالإِشْرَاكِ فِي الدُّنيا ﴿أَنَّكُمْ﴾ مَعَ قُرنَائِكُم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ عِلَّةٌ لتَقْدِيرِ اللَّامِ؛ لعَدَمِ النَّفْيِ و(إِذْ) بَدَلٌ مِنَ اليَوْمِ].

يَعْنِي: لَا يَنفعُكُم الإِشرَاكُ فِي العذَابِ. هَذَا هُوَ الصَّحيحُ، وعَلَى هَذَا فتكُون ﴿أَنَّكُمْ﴾ ليسَتْ للتَّعـليلِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْـهِ الْمُفسِّر، بَلْ هِيَ فَاعِلُ (يَنْفَع)، والمَعْـنَى لَا يَنفعُكُم اشتِرَاكُكُم فِي العذَابِ.

ووَجْـه ذَلِكَ: أَنَّه جَرَتِ العادَةُ أَنَّ الإنسَانَ إِذَا عُذِّب ورَأَى غيْرَهُ يُعذَّب هَانَ عَلَيْه الأَمْرُ، وتَسَلَّى، فِي يَوْمِ القِيَـامَةِ يَشْتَرِكُ أَهْلُ النَّارِ فِي العـذَابِ، لكِنْ لَا يَنفعُهم هَذَا شيئًا. هَذَا هُوَ الصَّوابُ الَّذِي تَدُلُّ علَيْهِ الْآيَة، أَمَّا المفـسِّر فجَعَل قوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ عِلَّة فِي تقْدِير اللَّام أَيْ: لأَنَّكُم فِي العذَابِ مُشتَرِكُونَ، ولكِنْ هَذَا بعِيدٌ مِنَ اللَّفظِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الْمُشتَرِكِينَ فِي عذَابِ الآخِرَةِ لَا يَنفعُهم الاشتِرَاكُ، بخِلَافِ الاشتِراكِ فِي العذَابِ فِي الدُّنيا فإِنَّه يُسلِّي الإنسَانَ، ويُهوِّنُ علَيْهِ؛ ولهَذَا قَالَتِ الخَنسَاءُ فِي رِثَاءِ أخِيهَا صخْرٍ:

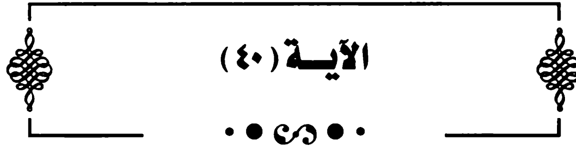
وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ الْبَـاكِينَ حَـوْلِي ... عَـلَى إِخْـوَانِهِمْ لَقَتَلْـتُ نَفْـسِي
وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ ... أُسَـلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّـأَسِّي[1]

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤُلَاء الْمعـذَّبين هُمُ الَّذِين ظَلَمُوا، ومَا ظُلِمُوا لقَولِهِ: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُـم -أيِ: الْمعذَّبينَ- يَعرِفُونَ أَنَّهُـم مُشترِكُونَ فِي العذَابِ، ولكِنَّ ذَلِكَ لَا يُسلِّيهم ولا يُهوِّن عَنْهُمُ الْمُصيبةَ.



(١) ديوان الخنساء ط. دار المعرفة (ص:٧٢)، الكامل للمبرد (١/ ١٦).



الآيــة (٤٠)

• • ✿ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف:٤٠].

• • ✿ • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن، أَيْ: فهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

الهمزَةُ للنَّفْي يَعْنِي: أَنَّكَ لَا تُسمِعُ الصُّمَّ، ولَا تَهْدِي العُمْيَ؛ لأنَّ هَذَا مَرْكُونٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: بَيِّنٍ، والمرَادُ بالسَّماعِ هُنَا إسْماعُ الهُدَى، والمرَادُ بالهُدَى هدي الهُدى، وليْسَ المَعْنَى أَنْ تُسمِع الصُّمَّ صَوتَك؛ لأنَّ هَذَا شَيْءٌ يَشْتَرِكُ فِيهِ كُلُّ النَّاسِ، لكِن إِذَا كَانَ الخِطَابُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَارَ الإِسمَاعُ هُنَا إِسمَاعَ الحَقِّ، والمرَادُ بالهُدَى الهُدَى إِلَى الحَقِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَسْلِيَةُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حيْثُ كَانَ يَنْدَمُ عَلَى عَدَمِ اهتِدَاءِ النَّاسِ، فبيَّن اللهُ لَهُ أَنَّ الأَمْرَ لَيْس إِلَيْهِ، بَلْ إِلَى اللهِ، وحينَئِذٍ تَهُونُ علَيْهِ المُصيبَةُ ويَرْضَى ويُسلِّم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُفَّارَ بمَنْزِلَةِ أهْلِ الصَّممِ الَّذِين لا يَسمَعُونَ، وقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ تعَالَى فِي آيَاتٍ أخْرَى بأنَّهُم ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أَوْ ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ العَمَى سببٌ لأَنْ يَتِيهَ الإنسَانُ عَنِ الطَّرِيقِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبينٍ -أَيْ: مُنغَمِسًا فِي الضَّلالِ- فإِنَّهُ لَا يَهتَدِي فِي الغَالِبِ.



الآيــة (٤١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف:٤١].

(إِمَّا) يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ (إِنِ) الشَّرطيَّةِ فِي (مَا) الزَّائِدَة] فإِمَّا وأَصْلُهُ، (فإِنْ مَا)، لكِنِ اجْتَمَعَتِ النُّونُ السَّاكِنَةُ مَعَ المِيمِ فأُدغِمَتْ إِحْدَاهُما فِي الأُخْرَى فصَارَتْ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾.

وقَـولُهُ: [مَعَ (مَا) الزَّائدَة] اعْلَـمْ أَنَّهُ لَيسَ فِي القُرآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ، كُلُّ مَـا فِي القُرْآنِ فإِنَّه فِي مَحَلِّهِ والسِّياقُ يَحتَاجُ إِلَيْهِ، لكِنَّ مُرادَهُم بالزِّيادَةِ هِيَ الَّتِي يَتِمُّ الكَلَامُ بِدُونِها، لَا الَّتِي يُمكِنُ الكلَامُ بدُونِها، هَذَا بالنِّسبةِ للقُرآنِ. يَعْنِي: لَوْ حُذِفَتْ لاستَقَامَ الكَلَامُ، وإِلَّا فإِنَّ لَهَا معْـنًى، وهُوَ التَّوكِيدُ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يَقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بأَنْ نُمِيتَكَ قَبْلَ تَعذِيبِهِمْ ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فِي الآخِرَةِ] كَمَا قَالَ، يَعْنِي: أَنَّنا إِنْ ذَهَبْنَا بِكَ، فلَنْ نُغفِلَهُم مِنَ العذَابِ، بَلْ نُعذِّبُهم.

وقَـولُ المُفسِّر: [فِي الآخِرَةِ] فِيهِ نَظَرٌ، والصَّوابُ فِي الدُّنيـا يَعْنِي: أَنَّا إِنْ ذَهَبْنَا بِكَ قَبْلَ أَنْ نُعـذِّبَهم فإِنَّنا لَا بُدَّ أَنْ نُعـذِّبَهم، وهَذَا تَهْدِيدٌ وَاضِحٌ لهـؤُلَاءِ المُكذِّبِينَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

الآيــة (٤٢)

• ● ❊ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف:٤٢].

• ● ❊ ● •

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ فِي حَيَاتِكَ مِنَ العذَابِ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم﴾ أَيْ: عَلَى عذَابِهِمْ ﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ قَادِرُونَ].

فالمسألَةُ إِمَّا أَنْ نُعذِّبَهم قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ، وإِمَّا أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يُعذِّبهُم، فإِنْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ نُعذِّبَهم، فإِنَّهُم لَنْ يُفلِتُوا مِنَ العذَابِ سنَنْتَقِمُ منْهُمْ، وإِنْ عذَّبناهُم قَبْلَ مَوتِكَ فإِنَّا قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، ولَنْ نُؤخِّرَ عنْهُمُ العذَابَ عَجْزًا.

وقَوْلُ المُفسِّر: [﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم﴾ أَيْ: عَلَى عذَابِهِمْ] الصَّوابُ العُمُومُ عَلَى عَذَابِهِمْ وعَلَى ذَوَاتِهِمْ، وعَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ.

وقَولُهُ: [﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ قَادِرُونَ] أيضًا فِيهِ قُصُورٌ؛ لأَنَّ المُقتَدِرَ أَبلَغُ مِنَ القَادِرِ، فإِنَّ زِيَادَةَ المَبْنَى تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ المَعْنَى، فهُوَ أبلَغُ مِنَ القَادِرِ، وعَلَى كُلِّ حَالٍ.

فالْآيَةُ مَعْنَاهَا الإِجمَالِيُّ: أَنَّنا إِنْ ذهَبْنا بِكَ للمَوْتِ؛ فإِنَّنا لَنْ نُغفِلَهُم عَنِ العذَابِ، وإِنْ عذَّبناهُم فِي حَيَاتِكَ؛ فستَرَى عذَابَهُم بنَفْسِكَ.

من فوائد الآيتين الكريمتين (٤١- ٤٢):

الْفَائِدَةُ الأُولَى: التَّهدِيدُ للمُكذِّبين للرَّسولِ ﷺ وأنَّ عذابهم واقِعٌ لا محَالَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ فإِنَّ رَسُولَ اللهِ جاءَ بالهُدَى والحَقِّ والآياتِ، فإِذَا كُذِّب فسَيكُونُ ذَلِكَ ثَقِيلًا عَلَى نفْسِهِ، فسَلَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهَذَا الوَعِيدِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَصْفُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالانتِقَام، كَما وَصفَهُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى.

ولكِنْ هَلْ يُوصَفُ بِهِ عَلَى الإِطْلَاقِ، فيُقَالُ مَثَلًا: المُنتَقِمُ؟

فالجَوابُ: لَا، لأَنَّ كلمَةَ المُنتَقِم ليْسَتْ مَدْحًا فِي ذَاتِها حتَّى تُقابَل بِما يَكُونُ سَبَبًا للانتِقَامِ؛ ولهَذَا تمُرُّ بنَا أسماءُ اللهِ الحُسْنَى الَّتِي عَدَّهَا بعْضُ النَّاسِ مِنْهَا المُنتقِمَ، وهَـذَا غلَطٌ، فإِنَّ ذَلِكَ ليْسَ مِنْ أَسْماءِ اللهِ؛ لأَنَّ اللهَ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ مِنْ أسمائِهِ، وإِنَّما ذكَرَهُ مُقيَّـدًا بحَالٍ مِنَ الأَحْـوَالِ؛ وهُنَا ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ مُقيَّدٌ بحَالٍ مِنَ الأَحْوالِ، وهِيَ تَكْذِيبُ هَؤُلاءِ، وهُوَ كقَوْلِهِ تعَـالَى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عظَمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حيْثُ وَصفَ نفْسَهُ بالجَمْعِ، ومِنَ المعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ المَرادُ بالجَمْعِ التَّعدُّدَ؛ لأَنَّ اللهَ إِلَهٌ واحِدٌ، لكِنَّ المُرادَ بالجَمْعِ هُنَا التَّعظِيمُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الوَعْـدَ يَأتِي فِي الشَّرِّ والعُقُوبَةِ، خِلَافًا لمِنْ قَالَ: الوَعْدُ فِي الخَيْرِ والإيعَادُ فِي الشَّرِّ، وأَنشَدُوا عَلَى ذَلِكَ قَولَ الشَّاعِرِ:

وإِنِّي إِنْ أَوْعَدْتُـــهُ أَوْ وَعَدْتُـــهُ ... لمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي(١)

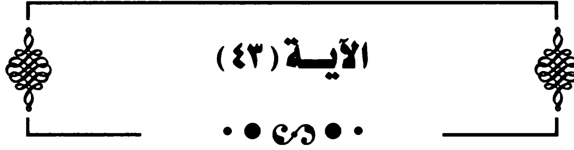
---

(١) البيت ينسب لعامر بن الطفيل، انظر: لسان العرب (١/ ٦٣).

فالصَّوابُ أنَّ مَعناهَا أنَّها تُطلَقُ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا، فهُنَا قَالَ: ﴿ٱلَّذِى وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ وعَلَى قِياسِ قَوْلِ البَيْتِ يَكُونُ التَّعبِيرُ: الَّذِي أَوْعَدْناهم، ولكِنَّ الصَّحِيحَ أنَّها جائِزَةٌ لهَذَا وهَذَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ غَلَبَةِ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلى كُلِّ قُدْرَةٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ وهُوَ كذَلِكَ، ولمَّا قَالَتْ عادٌ: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فَلَا قُـوَّةَ تُمانِع قُـوَّة اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا قُدرَةَ تُمانِعُ قُدْرتَهُ، بَلْ هُوَ العزِيزُ الغَالِبُ عَلَى كُلِّ أحَدٍ.





الآيــة (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣].



قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي: القُرْآنِ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طَرِيقٍ مُستَقِيمٍ].

﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ بمَعْنَى: تَمَسَّكْ، لكِنْ زِيدَتْ حُرُوفُها للمُبالَغَةِ. أَيْ: تَمَسَّكْ تَمَسُّكًا قَوِيًّا ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ والمُوحِي هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والمُوحَى القُرْآنُ، وإنَّما قَالَ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ ليُثبِّتَ رِسَالتَهُ، وإلَّا لَوْ قَالَ بالقُرْآنِ كَفَى، لكِنْ مِنْ أَجْلِ تَثْبِيتِ الرِّسالَةِ قَالَ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ والوَحْيُ هُوَ إِنْباءُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرُسلِهِ بِما يُشرِّعُه لعِبَادِهِ.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أمْرٌ وتَثْبِيتٌ، فالأمْرُ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ والتَّثبِيتُ: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وإذَا كَانَ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقِيم فإِنَّ العَقْلَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَحِيدَ عنْهُ، بَلْ أَنْ يَستَمْسِك بِهِ تَمَامًا، والصِّراطُ هُوَ الطَّرِيقُ الوَاسِعُ المُستَقِيمُ، فالطَّرِيقُ الضَّيِّقُ لا يُسمَّى صِرَاطًا، والطَّرِيقُ المُعوَجُّ يَمِينًا وشِمالًا لا يُسمَّى صِرَاطًا، لَا يُسمَّى صِراطًا إلَّا مَا كَانَ طرِيقًا واسِعًا مُستَقِيمًا، كَما قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: الطَّرِيقَ الوَاسِعَ المُستقِيمَ.

الآيـة (٤٤)

• • ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤].

• • ● ● •

قَالَ المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ لشَرَفٌ ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ بنُزُولِهِ بلُغَتِهِم ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عَنِ القِيَامِ بحَقِّه].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القُرآنَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ أَيْ: لشَرَفٌ عَلَى مَا فسَّره بِهِ المُفسِّرُ. أَيْ: أَنَّكُم تَشرُفون به؛ لنُزُولِهِ بلُغَتكُم؛ ولكَونِهِ نَزَل عَلَى وَاحِدٍ مِنْكُمْ، فهُوَ شَرَفٌ.

هَـذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المفسِّر ولَا مَانِعَ مِنْهُ، لكِنَّ **الصَّوابَ**: أنَّ المُرادَ بالذِّكر هُنَـا التَّذكِيرُ يَعْنِي: وإنَّ هَذَا الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لتَذكِيرٌ لَكَ ولقَومِكَ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: يَرِدُ عَلَى هَذَا أَنَّهُ تَذْكِيرٌ لِكُلِّ النَّاسِ.

فالجَوابُ: أنَّ هَذَا كقَـولِهِ تعَـالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢] مَعَ أَنَّهُ بُعِث لجَمِيعِ النَّاسِ.

وقَولُهُ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يَقُولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنِ القِيَامِ بحَقِّه] ومِنْ حَقِّه العمَلُ بِهِ، ومِنْ حَقِّهِ إبلَاغُهُ للنَّاسِ، ولهَذَا يُعتَبر العَرَبُ هُـمُ الإشعَاعَ لعَامَّة النَّاس فِي نقْلِ الشَّريعَةِ الإسـلاميَّةِ، ليْسَ فِي الجَزيرَةِ حِينَ نَزَلَ الوَحْيُ إِلَّا عَرَبٌ، هـؤُلَاءِ العربُ

بَثُّـوا الإسلَامَ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الدُّنيا، وهَـذَا مِنْ حقِّهِ ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ عمَّا فِيـهِ مِنَ الأَمْرِ بالجِهَادِ، هَلْ جَاهَدْتُم أَمْ لَا؟ ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ عَنْ تَنفِيذِ جمِيعِ شَرَائِعِهِ؛ ولهَذَا كَلَامُ المفسِّرِ هُنَا جَيِّدٌ عَنِ القِيَامِ بحَقِّهِ.



الآيــة (٤٥)

• • ෆ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

• • ෆ • •

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: مِنْ غَيرِهِ ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾] (اسْأَلِ) الخِطَابُ للنَّبيِّ ﷺ؛ لقَولِهِ: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وسَوفَ يَكُونُ الجَوَابُ: (لَا).

والمَقصُودُ مِنْ هَذَا الأمْرِ هُوَ إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَى المُشرِكِينَ الَّذِين يَعبُدُونَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ، يَقُولُ للنَّبيِّ: اسْأَلْ جَمِيعَ الرُّسل السَّابِقِينَ، هَلْ جعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحمَنِ آلهَةً يُعبَدُون حتَّى يَقُومَ هؤُلَاءِ المُشرِكُونَ فيَعبُدُونَ مَعَ اللهِ غَيرَهُ.

فَفِيهِ إِقَامَةُ الحُجَّة عَلَى المُشرِكينَ، أَنَّ جميعَ الرُّسُلِ السَّابِقِين لَيْسَ فيهِمْ مَنْ يُحِلُّ الإِشرَاكَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإِنْ قَالَ قَائِل: كيفَ يَسأَلُ مَنْ أَرْسَلَ اللهُ مِنَ الرُّسلِ قبْلَه وهُوَ لَمْ يُدرِكْهُم؟

فالجَوابُ: أنَّ هَذَا مِنْ أَسَاليبِ اللُّغَةِ العربيَّةِ، والمَعْنَى: إنَّك إِنْ تَسأَلْ عَلَى الفَرْضِ والتَّخييرِ فلَنْ تُجاب بـ(نعَمْ)، بلْ سيَكُونُ الجوَابُ: (لَا)، فهُوَ مِنْ بَابِ التَّحَدِّي لهؤُلاءِ المُشرِكِينَ الَّذِين يَدَّعُون أَنَّهُم عَلَى حَقٍّ.

وقولُه: ﴿أَجَعَلْنَا﴾ أيْ: صيَّرْنا ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ قِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِه بأَنَّ جُمِع لَهُ الرُّسلُ ليلَةَ الإسرَاءِ. يَعْنِي: وسأَلهُم، لكِنَّ هَذَا القَولَ ضعِيفٌ؛ لأَنَّ جمِيعَ الأحادِيثِ الوارِدَةِ فِي الإسْرَاءِ لَيْسَ فِيهَا هَذَا.

ثُمَّ إنَّ المَقصُود بالإِسْراءِ إظهَارُ شَرَفِ النَّبيِّ ﷺ، بَلْ هَذَا مِنْ مَقصُودِ الإسرَاءِ، إظهَارُ شرَفِهِ علَى الرُّسلِ، فكَيْفَ يُوجَّه إليهِمْ هَذَا السُّؤالُ؟! فهَذَا القَوْلُ ضعِيفٌ جِدًّا ولَا وَجْهَ لَهُ.

وقِيلَ: المُرَادُ أُمَمٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، وهَذَا أيضًا ليْسَ بصَوابٍ يَعْنِي: هؤُلَاءِ يَقُولُون: المَعْنَى ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ يَعْنِي: اسأَلِ الأُمَمَ الَّذِين أُرسِل إلَيْهِمْ، وهؤُلاءِ بَاقُونَ إِلَى بعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ، وهَذَا ضعِيفٌ مُخالِفٌ لظَاهِرِ القُرآنِ، فالقُرآنُ يَقُولُ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ والأُمَمُ التَّابعَةُ للرُّسلِ فِيهِم مُشرِكُونَ، فالنَّصارَى أَقْرَبُ الأُمَمِ فِيهِمْ مُشرِكُونَ، فَلَا يَتوجَّهُ سُؤالُهم مَعَ كونِهِمْ مُشرِكِينَ، هَذا أيضًا ضَعِيفٌ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَلَمْ يسأَلْ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ القَوْلَينِ]؛ لأَنَّ المُرادَ مِنَ الأَمْرِ بالسُّؤالِ التَّقريرُ لمُشرِكِي قُرَيْشٍ، أَنَّه لَمْ يَأْتِ رَسُولٌ مِنَ اللهِ ولَا كِتَابٌ بعِبادَةِ غَيْرِ اللهِ، هَذَا صَحِيحٌ، يَعْنِي: أنَّ السُّؤالَ إنَّما أُرِيد بِهِ إلزَامُ قُرَيْشٍ بأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ أحدٌ مِنَ الرُّسلِ بإِبَاحَةِ عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ، هَذَا المقصُودُ، وهَذَا كقَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، لكِن هُنا السُّؤالُ فِيهَا أعمُّ؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ ولَمْ يَخُصَّ ذلِكَ بالرُّسُلِ.

من فوائد الآيات الكريمة (٤٣- ٤٥):

الْفَائِدَةُ الأُولَى: حثُّ النَّبيِّ ﷺ عَلَى التَّمسُّكِ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وإِذَا كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُحثُّ عَلَى ذَلِكَ فنَحْنُ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مُحمَّدًا ﷺ كَانَ رَسُولَ اللهِ حقًّا؛ لإِثْبَاتِ الوَحْيِ إِلَيْهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَثْبِيتُ النَّبيِّ ﷺ عَلَى الاستِمْسَاكِ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وذَلِكَ بأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الشَّرِيعَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صِرَاطٌ مُستَقِيمٌ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، ولَا انحِرَافَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَـذَا القُرآنَ الكرِيمَ فِيهِ ذِكْرٌ للعَرَبِ -أَيْ: شَرَفٌ لَهُـم- وفِيهِ تَذْكِيرٌ لَهُمْ؛ لقَولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحْمِيلُ المَسؤُولِيَّةِ العظِيمَةِ عَلَى العَرَبِ، وهِيَ أَنَّهُم سَوْفَ يُسأَلُون عَنْ هَذَا الوَحْيِ هَلْ قَامُوا بحقِّه أَوْ لَمْ يَقُومُوا بحَقِّهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِقَامَةُ البَيِّنَةِ الكُبْرى عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الرُّسلِ السَّابِقِينَ: إِنَّ هُنَاكَ آلهَةً تُعبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ لقَولِهِ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثبَاتُ اسمِ الرَّحمنِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَولِهِ: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ والرَّحمنُ هُوَ أَحَدُ الاسْمَينِ اللَّذينِ لَا يُسمَّى بهمَا غيرُ اللهِ، وهُمَا اللهُ والرَّحمنُ، لَا يُوصَف بهِمَا سِوَى اللهِ، الرَّحِيمُ يُوصَفُ بِهِ غَيرُ اللهِ، العَزِيزُ يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللهِ، السَّمِيعُ يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللهِ، وهَكَذَا، لكِنَّ هذَيْنِ الاسْمَينِ الكَرِيمَيْنِ -الله والرَّحمن- لَا يُوصَف بهِمَا أَحَدٌ، ولا يُسمَّى بهِمَا أَحدٌ إِلَّا اللهُ تعَالَى وحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: اتِّفَاقُ الرُّسُلِ عَلَى التَّوحِيدِ، وهَذَا كَقَولِهِ تعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهَذَا قَدِ اتَّفَقَ عَلَيْهِ الرُّسلُ، وَقَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

والرُّسل مَا جاءَتْ إلَّا لإصلَاحِ الخَلْقِ، والخَلْقُ لَا يُمكِنُ صلَاحُهم وَلَا إصْلاحُهُم إلَّا إِذَا قَامُوا بتَوحِيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإِنْ لَمْ يَقُومُوا بتَوحِيدِهِ تَشتَّتَتْ قُلوبُهم، وصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم يذْهَبُ مَذهَبًا غَيرَ الآخَرِ؛ لأَنَّ كُلَّ أُمَّة تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لهَا مَعبُودٌ خَاصٌّ، فتَحصُل الفَوْضَى بَيْنَ العِبَادِ، فإِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ؛ حَصَلَ الاتِّفَاقُ بدُونِ فَوْضَى.



وبِذَلِك انتَهَتِ الدُّروس العِلْميَّة الصَّباحيَّة المُسجَّلة صوتيًّا، والتِي كانَ يَعقِدها فَضيلِةُ شَيخِـنا العلَّامة محمَّد بنُ صالحٍ العُثَـيْمِين رَحِمَهُ اللَّهُ في جامِعـه بمَدِينة عُنَيْزةَ، وكانَ آخِرها يومَ الأَرْبِعاء ١٠ رَبِيع الآخِر عام ١٤٢١هـ.

رحِـم اللهُ شيخَنا رَحمةَ الأبرارِ، وأَسْكنـه فَسِيح جنـاتِه، ومَنَّ عَلَيه بمَغْـفِرتِه ورِضْوانِه، وجَزاهُ عمَّا قدَّمه للإِسلامِ والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وصلَّى اللهُ وسلَّـم وبارَكَ على نَبيِّنا محـمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصحابِه، ومَن تَبِعَـهُم بإِحسانٍ إلَى يَومِ الدِّينِ.



بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأنا الدروس الصباحية والمسائية في إجازة عام ١٤٢١هـ يوم السبت ١٥ ربيع الأول وانتهينا يوم الأربعاء ١٠ ربيع الثاني فكانت مدة الدراسة خمسة وعشرين يوماً نرجو الله تعالى أن يجعل فيها البركة.

وكان موقفنا في الدروس الصباحية:

في التفسير: عند قوله تعالى في سورة الزخرف (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) آية ٤٦

في الحديث: كتاب الزكاة.

وفي أصول الفقه: أثناء باب القياس عند الكلام على الأصل ص ٤٦

وفي الفقه: كتاب النفقات.

وفي النحو: أكملنا الآجرومية.

وفي العقيدة: جعلناها مكان الآجرومية وقرأنا (عقيدة أهل السنة) كاملاً

أما في المساء فقرأنا الأربعين

والحمد لله رب العالمين

بخط فضيلة الشيخ العلّامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

فهرس الأحاديث والآثار

• ● ۞ ● •

فهرس الفوائد



فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

